من التُّراب إلى الماء

زهراء عبدالله

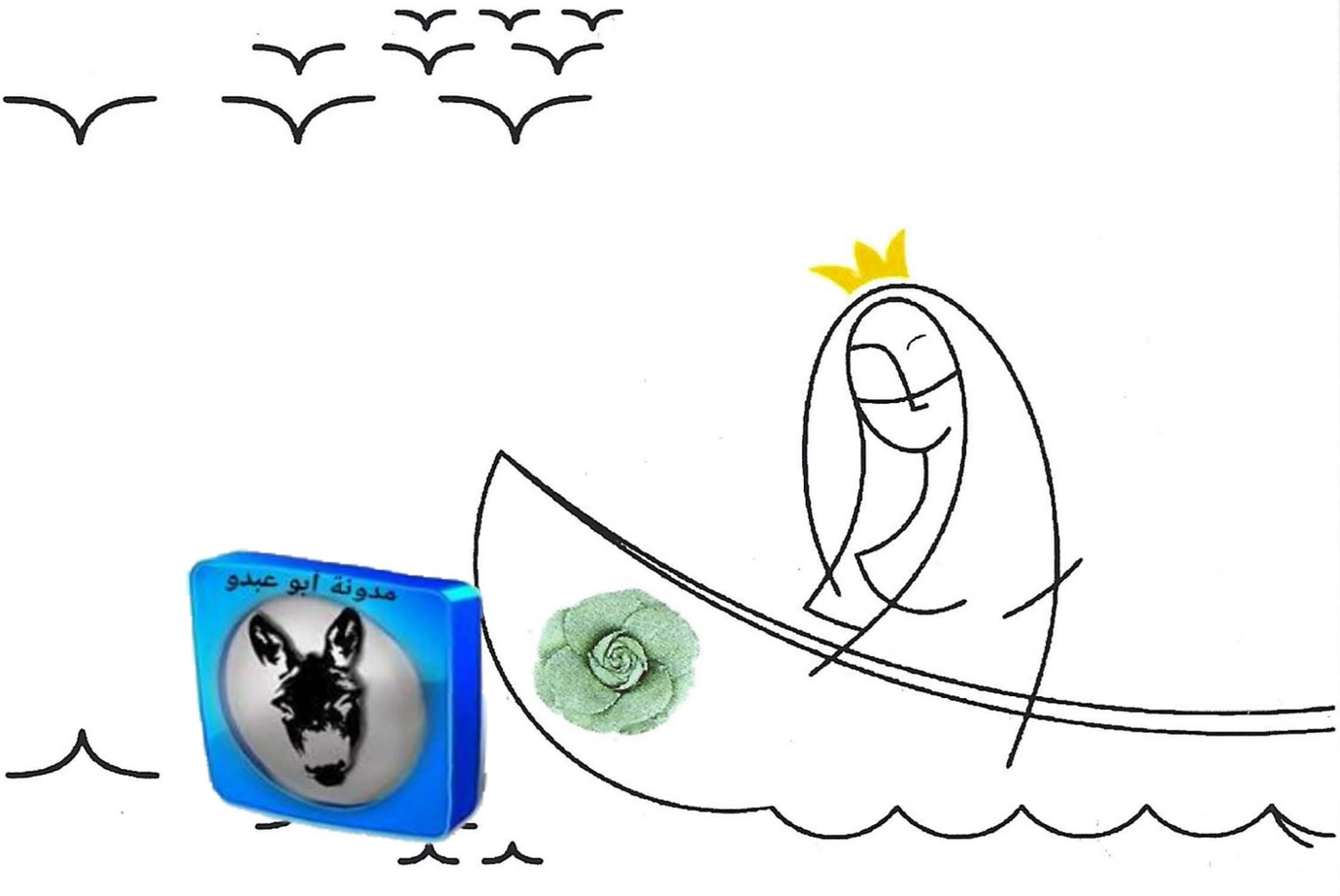

رواية

دار الآداب

زهراء عبد الله

من التراب إلى الماء

رواية

دار الآداب ـ بيروت

من التراب إلى الماء
زهراء عبد الله / روائية لبنانيّة ـ سوريَّة
الطبعة الأولى عام 2020
ISBN 978-9953-89-700-4

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيِّ جزءٍ منه، أو تخزينِه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيّ شكلٍ من الأشكال، من دون إذن خطّيٍّ مسبَّق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Daraladab @Daraladab daraladab.com

المادَّة 1: الطّفل هو كلّ إنسانٍ لم يتجاوز الثامنة عشرة.

اتِّفاقيَّة حقوق الطفل

المادَّة 22: هذه الاتِّفاقيَّة تكفل للطفل الذي يسعى للحصول على مركز لاجئ تلقِّي الحماية والمساعدة الإنسانيَّة.

اتِّفاقيَّة حقوق الطفل

المادَّة 28: حقّ الطفل في التعليم.

اتِّفاقيَّة حقوق الطفل

المادَّة 34: حماية الطفل من جميع أشكال

الاستغلال الجنسيّ، أو الانتهاك الجنسيّ.

اتِّفاقيَّة حقوق الطفل

المادَّة 14: لكلِّ شخص الحقّ في طلب اللجوء والتمتُّع به، إذا كان فارًّا من الاضطهاد في بلدانٍ أخرى.

الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان

أيُّها المارُّون قُربَ أحلامكم،
لا تغضُّوا أبصاركم عنها،
اركضوا إليها
عانقوها . .

من التراب...

«السماءُ تُهدي من تشاء..»

في كلِّ مرَّةٍ تُردِّد جدَّتكِ أغنيتها هذه، كنت أرسمُ، على وقعها، بإصبعي على باطن كفِّي الصغيرة سماءً واسعةً بيضاء، وأنتظر هديَّتي.

كبرتُ، وما عادَ بوسع بصري الضعيف رؤيةَ السماء التي تلاشت بين تجاعيد كفِّي.

تُرى بأيَّة سماءٍ بقيتْ جدَّتكِ تتغنّى، بالرَّغم من تجاعيدها؟!

لقد تخلَّيتُ عن سمائي في وقتٍ ما من حياتي، من دون أن أعي ذلك إلَّا متأخِّرًا.

«سما» يا ابنتي، هل تسامحيني على ما اقترفت يداي من خطيئة؟!

كأسطوانةٍ مُعطَّلةٍ، تُعيدُ تشغيلَ نفسها بلا توقُّف، تُعاد هذه

الكلمات الأخيرة لوالد سما في رأسها. مُحدِّقةً ببقعةٍ من التراب الأحمر الطازج.

هنا، في هذه الأرض الغريبة، وعلى عمق متر واحدٍ، دُفن أبوها منذ قليل،

وإلى الأبد.

ينخرُ عقلَها سؤالٌ واحد: «كيفَ اتَّخذَ أبي قرارَ موته وحده!»

تكبُّ بصرها على القبور المُحيطة بها، البارزة بفوضويَّة.

كم ازدادت منذ ثلاث سنوات!

تُشيحُ بنظرها نحو المخيَّم المُنعزل بوحدَته تحت سماء أيلول المُزدحمة باللون الرماديّ.

كم ضَاقَ بهم وطنهم حتى لجأوا إلى هذه الأرض[1]؟

طفحت بهم، ففاضت فوقها خيمهم، ورقدت تحتها قبورهم.

تُخفض رأسها، تعُبُّ شهيقًا باردًا مُبلَّلًا بالموت، وتكبُّ بالتراب زفيرًا ساخنًا مُشبعًا بالحياة.

تُرى، هل وصَل لقلبه دفءُ أنفاسها!؟

تشعرُ للحظةٍ أنَّها تتفتَّت، تضمحَلّ، تعود بذاكرتها إلى طفلةٍ كانت تدورُ في دكَّان أبيها:

نبشت من بين قصاصات القماش أزرارًا وخيوطًا مقطَّعةً

---

(1) بعد أكثر من ستَّة أعوام من الصراع في سوريا، يستضيف لبنان ما يفوق الـ 1,5 مليون لاجئٍ سوريّ (المفوَّضيَّة العُليا لشؤون اللاجئين في الأمم المتَّحدة).

بأحجامٍ وألوانٍ متعدِّدة، حشتها بكفِّها الصغيرة، فتسرَّب بعضها أرضًا، ثم عاودت لملمتها بأصابع يدها اليسرى؛ رفعت رأسها الصغير ساعيةً لتتكمَّش بقدم أبيها التي تدوس دولاب ماكينة الخياطة.

فلا تجده!

ترفع رأسها بطريقةٍ خاطفةٍ مُستطلعة، فتصطدم بشاهدةِ قبره قد طغَت على بصرها، على المكان..

تُرى، هل كبُرَت إلى الحدِّ الذي بات يَسنمح لأبيها بالرحيل؟!

ساعاتُ بعدَ ظُهر يومٍ أيلوليّ قصيرةٌ باردة، كأنَّها جزءٌ من بداية ليل هذه البلدة القابعةً في شرقيّ شمال البقاع.

على بُعد عدَّة أقدام من سما، يتمشَّى باسل بقامته الطويلة، ولحيته السوداء التي تركَها تنمو بفوضى كما تحبّها «سماه» مُنتظرًا رحيلَ مَنْ تبقَّى من الناس، يهمُّون مسرعين بمغادرة المقبرة باتِّجاه المخيَّم، علَّهم، إن أغلقوا أبوابهم القماشيَّة يستشعرون دفئًا بسيطًا.

يفتح عُلبة دخَّانه الفضِّيَّة، يُخرجُ ورقةً ينثرُ فيها شُعيرات الدخان، يمسح عليها بطرف لسانه، ثم يلقيها بين شفتيْه، وقبل أن يُشعلها يرمق سما طويلًا بعينيْه السوداويْن.

يتأمَّلها من مكانه، ينفثُ دخانَ سيجارته اللفّ حتى رمقها الأخير، وتراوده رغبةٌ مجنونة:

«لو أراقصها الآن..

أدور معها حول المقبرة، حول المخيَّم، حول السماء..»

كانت سما لا تزالُ تدور مكانها. كيف تُخبر أباها بالكلمات العالقة ليرتاح، وترتاح هي أيضًا!

الموت لا يُمهل الفرص لأبسط الأشياء، وأصغر الكلمات.

في الجهة المقابلة لها، يجلس باسل القرفصاء، يمرِّغ بحجرٍ صغيرٍ عقب سيجارته المرمَّدة.

يسدلُ يده على يدها اليسرى الغائرة بالتراب، كأنَّها تُحاول استرجاعَ شيءٍ يخصّها ابتلعته الأرض.

يمسك بمعصمها، يفرك راحتها بلمساتٍ هادئة. تُطبق أصابعها على كفِّه بانقباضةٍ سريعة مفاجِئة، وتهمهم:

«سأرحلُ من هنا قبل أن يمرّ الأربعين».

قبل أشهرٍ قليلة من الآن، بدأت منظَّمةٌ محليَّةٌ تابعة للأمم المتَّحدة مشروعًا تناول حالاتِ الفتيات اللواتي دخلن معترك الزواج المبكر في المخيَّمات السوريَّة المشيّدَة في البقاع اللبنانيّ.

الجزء الأهمّ في المشروع هو أن تكتب كلّ فتاة، من اللواتي يعرفن القراءة والكتابة، تجربتها.

أملتْ سما رغبةً بالبوْح، بعد تجربة زواجيْن متتاليَيْن، لا يفصل بينهما إلَّا مدَّة العدَّة الشرعيَّة.

فكانت هذه الأوراق المعتمدة تُشبه إلى حدٍّ مُذهل عصفورًا خاف أن يُخرِجَ صوته، وحين غنَّى بملء حنجرته طقّ غلّ قفصه، فخلعه أخيرًا محلِّقًا خارج حدود القضبان.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

«لو طُلب منِّي أن أكتبَ هذا الكلام قبل عاميْن، لما تجرَّأت..

لأفرغت حبرًا أسود على هذه الأوراق البيضاء، حتى يتشوَّه بياضُها الناصع كفستان عُرسٍ ينتظرُ جسدًا صغيرًا يغلِّفه، يلتصق به.

ما إن يَكبر هذا الجسد يضيقُ عليه كلّ هذا البياض.

بعضُ الأجساد، كالماء، تأخذ شكلًا فُرضَ عليها.

أجسادٌ أخرى تتمدَّد إلى حدٍّ يُسمح به، فتفتقُه سرًّا من أحد جوانبه، ليتَّسع قليلًا عليها، فتقتنع بأنّها ارتاحت.

وأجسادٌ مختلفة، ما إن تَكبرُ، حتى تتحوَّل إلى كتلةٍ صخرٍ صلبة.

تثورُ، ترفسُ، تظلُّ تتخبَّط داخل خصره وعلى طول أكمامه إلى أن يتمزَّق ويتفتَّت.

منذ سنتيْن وأنا في الخامسة عشرة[1]، لبستُ فستانًا أبيض غيَّر حياتي إلى الأبد.

كان لي حلمٌ، بخيْطٍ غير مرئيٍّ حكتُه منذ كنت طفلةً ألهو بمحلِّ خياطة أبي بين الأقمشة والأزرار والخيطان، انغرزَت الإبرةُ بطرفِ الحلم مُشكِّلةً أوَّل غُرزة بتفصيلة حلمي بأن أصبح: «مصمِّمة فساتين بيضاء».

أجاد الزواج قتل حلم العروس بداخلي، لكنَّني أحييتُه بأن أصمِّم فستاني أبيض مُكلَّلًا بتاجٍ من ورود ملوَّنة.

حلمي الذي نزحَ معي إلى خيمة زوجي الأوَّل «منكر»، شهرًا وعشرين يومًا ثم إلى بيت زوجي الثاني «نكير» سنة وعشرة أشهر.

جرَّبتُ القبر مرَّتيْن!

امراةٌ مُطلَّقةٌ في السابعة عشرة، في مجتمعٍ لا ترحم فيه ذئابه، ولا حملانه. لكلٍّ منهما أنيابٌ يظهرها متى سنحتْ لهما الفرصة.

---

(1) قارنت المنظَّمة الدوليَّة «قرى الأطفال SOS» أعداد حالات الزواج، دون السنّ القانونيَّة، في سوريا قبل وبعد الحرب، وخلصت إلى أنَّ عددها قبل الحرب كان بنسبة 13%. لكنَّها وصلت الآن في المخيَّمات السوريَّة المنتشرة في تركيا، الأردن ولبنان، إلى حدود الـ 50%.

وعدني أبي أنَّه لن يزوِّجني ثالثةً؛ ولأنِّي أصدِّقه، أملكُ اليوم قوَّةً تدفعني لأفرِّغَ على هذه الورقة كلَّ السواد الذي ألبسني إيَّاهُ ذاك البياض.

وأمضي لأرتدي حلمي مجدَّدًا..

في طريق عودتها من المقبرة، يتبعها باسل من دون أن يمشي بمحاذاتها.

تجرّ قدميْها مدركةً أنَّ كلّ خطوةٍ توغل بها بعمقِ هذا المخيَّم تقرِّبها من قدرها اللعين.

قبل أن تصل الزّنَقَة التي تفضي إلى خيمة أهلها، تلتفت تومئ لباسل تحيَّة الوداع على غفلةٍ من الناس المبعثرين حول خِيَمهم.

تشعر على نحوٍ مُباغت، أنَّها خفيفة، بإمكانها أن تطالَ ما تريد، بيدها اليسرى!

يدها التي تبدَّلت منذ أوَّل زواج، إذ لم تعُد تُشبه يدها اليمنى، شنقها محبسان ذهبيَّان، فأصبحت يدَ عفريت، بها وحدَها تُعيد توازنًا فقدته حين زُوِّجَت.

أين أهلي؟

ما إن بدأ هذا السؤالُ يضجّ برأسها حتى أخذت يدها اليسرى تسرقُ أشياء لا قيمة لها[1].

علَّها ببضعة أغراضٍ أو خِرق تسّدُ الثقوب التي جوَّفت معطف الأمان الخاصّ بها.

يمتدُّ حبلُ غسيلٍ طويلٍ بين خيمتيْن، تتدلَّى منه ثيابٌ رثَّة.

تشعر سما بأنَّها خفيفة، يمكنها أن تطال ما تريد، تمتدّ يدها اليسرى بخفَّةٍ إلى طرفِ الحبل تلامس جوربًا قطنيًّا، تدسّه في البطانة المخفيَّة في جوف حقيبتها الصغيرة الصوفيَّة، ثم تهرول مفعمةً بالإثارة نحو مَخبئها.

تسلُبُ، لتعوِّضَ عمَّا سُلبَ منها!

داخل الخيمةِ عالمٌ ضيِّق، لا يتَّسع لفرحٍ، أو لحزن.

أرادت أن تجدَ لنفسها زاويةً تتقوقع فيها بلا أيَّة عيونٍ تتلَصَّص على حُزنها كقطط المزابل.

تقفُ أمُّها متَّشحةً بالسواد عند باب الخيمة، تودِّع النساء اللاتي كنَّ يعزّيْنها.

تغلقَ البابَ الخشبيّ الرقيق، تلج الخيمةَ مصوِّبةً عينيْها على

---

(1) kleptomania: هوس السرقة، هو مرضٌ نفسيّ، يكون المُصاب به مدفوعًا إلى سرقة أشياء تافهة الثمن والقيمة. يرافق السرقة شعورٌ باللذَّة. تعود أسبابه غالبًا إلى اضطرابات عاطفيَّة في مرحلة الطفولة أو المراهقة، كمشاكل حرمان أو بُعدٍ عاطفيٍّ وعائليٍّ. وتكون السرقة مجرَّد واجهةٍ لأشياء مكبوتة، إذ يحاول المريض إيجاد منفذٍ لقلقه، ومتنفَّسٍ لتوتُّره وعلاقاته المتزعزعة.

ماكينة خياطة أبا سما، فتقول بحسرة:

«رحم الله أباكم من هذه العيشة».

بعد أن فكَّرتْ بصمتٍ لثوانٍ معدودة، تردف مردِّدةً عبارتها الدائمة: «لقد رأيت حلمًا وتحقَّق».

من دونَ أن تُحَرِّر حرفًا من حنجرتها المُتضخِّمة بالكلام الذي لا يُقال، تندسّ سما في فراشها، تغمر كلّ جسدها حتى رأسها، بغطاءٍ بنِّيٍّ، كُتب عليه باللون الأخضر «جمعيَّة الإغاثة لمساعدة إخواننا السوريّين».

تسحب غنيمةَ اليوم من بِطانة حقيبتها الصوفيَّة، تُدخل الجورب بكفِّها فيخرج إصبعها من ثقبٍ كبيرٍ في آخره، تُعيده وتنتحب.

مضى وقتٌ لا أحد خطر له احتسابه.. يومان، ثلاث، أربع..

في الخارج، الهواء يعوي، يهجم كذئبٍ جائع.

كم يكون الهواء، مجرَّد الهواء، مُرعبًا لمن يعتمرون سقفًا من قماش!

أمَّا داخل الخيمة، لا يُسمع إلَّا صوتُ طقطقةِ الحطب في الموقدة، وهسهسةُ أمّ سما تقرأ القرآن وتحمي صفحاته الكريمة من دموعها. إخوتها الثلاثة، صبيانٌ صغار. عمر أكبرهم إثنا عشرة سنة، يحيطون بالموقدة، يتشاركون النظرات المُتحسِّرة حينًا، والابتسامات الطفيفة حينًا آخر.

ترفعُ سما عن رأسها الغطاء، تصوِّب نظرها على كرسيِّ أبيها الفارغ خلف ماكينة الخياطة.

صوتُ درزتها الذي ينبع من أذنها، من أين يأتي؟

أبوها ليس هنا! على بعد عدَّة أمتار، وعلى عمق مترٍ واحد، يغفو غفوته الأبديَّة.

ستعودُ من اليوم لتواجه صحوةَ أيَّامها القادمة وحدها.

صوتٌ يبعثر الأجواء الهادئة، ينده من أمام الباب:

«يا الله.. يا الله».

يدخل عمّ سما بقدمه الوحيدة، يتوكَّأ على عكَّازه التي حلَّت مكان قدمه المبتورة. كان قد خسرها من جرَّاء قذيفةٍ هوت على مقربةٍ منه بسوق قريتهم.

تنزلق سما في فراشها كسمكةٍ صغيرةٍ في حوضِ سمك يقف عند سطحه قطٌّ بريّ.

يهمّ أخوها بسحب كرسيٍّ من طرف الخيمة، يضعه قرب الموقدة ليستقرّ عليه العمّ الكبير الذي يُلقي نظرةً خاطفة إلى الزاوية التي تنام بها سما، ويقول موجِّهًا الكلام لأمِّها: «أيقظيها».

تنقر أمّ سما على رأسها عدَّة مرَّات:

«قومي، عمّك الكبير هنا، قومي».

تدرك سما أنَّ غطاء «الإغاثة لإخواننا السوريين» لن ينقذها.

يسحب عكَّازه، ثمّ يقول بنبرةٍ ثقيلة: «عمِّي، موضوعك لن يتأجَّل أكثر، الشاويش ينتظر، لقد تكلَّم معي، وقرَّر أن يتمّ كَتْب الكتاب بعد الأربعين بإذن الله».

يرفع حاجبيْه متنهِّدًا: «أنا أيضًا مفجوعٌ بأخي، والحزن لا يلغي الارتباطات.. لن نقيم عرسًا لسبعِ ليالٍ، إنَّه عقد قران وننتهي».

تردّ سما بصوتٍ مُنكسر: «أبي قال لن أتزوَّجه».

يتكدَّر وجهه، يرفعُ عصاه ملوِّحًا بها، ويقول معترضًا: «ستتزوَّجينه لتعود عكَّازتي الثانية من خيمة الشاويش إلى تحت إبطي».

مخيَّم «الوطن» الواقع على تلَّةٍ بأطراف هذه البلدة اللبنانيَّة المتاخمة للحدود السوريَّة، مكوَّنٌ من مئة خيمة، وحوله عشرات المخيَّمات الأخرى، يوحي لمن تطلّ بيوتهم عليه أنَّه غيمةٌ كبيرة تتسرَّب منها أضواءُ نجومٍ متخفِّية، إلَّا أنَّه من الداخل نجومٌ متفحِّمةٌ في هذا الكون الفسيح.

الشاويش رأس الهرم في المخيَّم، السلطة المطلقة المتعسِّفة بحقّ كلّ الموجودين الهاربين من البراميل المتفجِّرة، والخائفين من لمعة سكِّينٍ بأيدي من يهتفون: «الله أكبر».

رجلٌ أربعينيّ يكسوه الشعر حتى أسفل رقبته كالقِرَدة، ويملأ وجهه المُدوَّر نمشٌ بنِّيٌّ كذباباتٍ مُلتصقةٍ بجلده منذ ولدته أمّه.

نصَّب نفسه شاويشًا من زمن ما قبل الحرب، يأتي بالعمّال والعائلات السوريَّة للعمل في الأراضي الزراعيَّة. إنَّها مهنةٌ قديمة.

أخذ الشاويش يوسِّع أعماله، يؤمِّن طريقًا لمن يودُّون الهروب إلى لبنان، يأخذ منهم أوراقهم، ولا يردُّها إلَّا حين يدفعون تكاليف العبور والخيمة. هكذا يمسكهم من أعناقهم.

الجزء الأهمّ من السلطة يستمدّه من انتمائه إلى مجموعةٍ مسلَّحة.

يُلزم المنظَّمات والجمعيَّات المحلِّيَّة بالتواصل معه في كلِّ أمور المخيَّم.

من خيمته، تنطلق كلّ المؤن الغذائيَّة، المازوت، حتى العمَّال: نساءً ورجالا وأطفالًا، بحسب الطلب.

الشاويش كالإلٰه، يتكمَّش به الضعفاء. وكلّهم هنا متكمِّشون متشبِّثون برضا الشاويش، فلا أحد يجرؤ على العصيان أو على الإعلان عن أصغر وأخفّ الأفكار النقديَّة التي تجول بالأخلاد، قد يصل الأمر إلى الطرد خارج المخيّم.

داخل المخيَّم، ما إن يستقرّ الليل بين ممرَّاته، حتى تصبح شبه خالية. يُجبر البرد، الذي يرافق جوقة الليل، الناسَ على الانسحاب بحثًا عن نارٍ أو بطّانيَّة.

باسل وحده من يحترق قلبه، ولا يدفِّئه. لا يقوى على المكوث لبرهةٍ بين أهله، حتى يخرج هائمًا.

تُناوله ورد، أخته الصغرى، شاله. أكملت أعوامها الثلاثة عشرة بعينيْها شبه العمياويْن. ترتدي النظَّاراتِ منذ سنتها الأولى.

دائمًا ما تقول لباسل: «إنَّني أرى عالميْن، أحدهما واضح

المعالم، بنظَّارة، والثاني ضبابيُّ الرؤية. لا أفرِّق فيه بينك وبين العمود وسط الخيمة. أحبّ أن ألعب هذه اللعبة، الانتقال بين العالميْن».

يلفّ شاله حول رقبته، وينطلق برحلته الليليَّة نحو خيمة سما، نحو عالمه..

يقفُ على بعد خيمتيْن منها، يُخرج علبته الفضِّيَّة، يُشعل سيجارته اللفّ، يحرِّر دخانًا من قاعه المُتَّقد، وعيْناه تُعيدان بناء بابٍ جديد مُختلف لخيمة سما. بابٌ غير مرئيّ، يعبرُ من خلاله إليها، يرفع الغطاء عنها قليلًا، ليمرِّر جسده ويجسِّيه بهدوء، فيلتصق بجسدها. من دون أن يوقظها، من دون أن يتنفَّس، من دون أن يتكلَّم وتحرجه تاتأته، يريد أن يتشمَّم أنفاسها، أن يلامس بشفتيْه شفتها السفلى علَّها تنصهر بفمه، فيحتفظ بها، ومتى اشتاقها قبَّلها كما يرغب.

ينفض عنه رمادًا هوى على شاله، يسحبُ أنفاسًا متتاليةً من سيجارته لينهيها وهو يقفل عائدًا إلى خيمته.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

عقدٌ من الذهب، إسوارةٌ تتدلَّى منها أقمارٌ ونجومٌ صغيرة، حَلَقٌ طويل بطاباتٍ ذهبيَّة، خاتمان أحدهما محبس، وخمسمئة دولار أميركيّ.

كان هذا ثمني!

أهوي بذاكرتي، أُعيد نبش ما جرى معي. كان زواجي كعجلات شاحنةٍ كبيرة تزن أطنانًا، داست على حياتي ذهابًا وإيابًا.

كيف تُمحى هذه الآثار؟!

لم يكن قد مضى على طلاقي الأوَّل من «منكر»، إلَّا ثلاثة أشهر. حين انقضت العدَّة، تولَّى عمِّي الكبير باسم الشرف والستر، أن يدفعني بقبضته الثقيلة إلى الهاوية مجدَّدًا، أمام شهودٍ كثر: إخوتي، أمِّي، أبي، الشيخ، ومباركة الله..

كنت أرتجف من صقيعٍ يوسِّع ثقوب معطف الأمان بي.

أمَّا هم، لم يَرَوْني إلَّا صنمًا يعجز عن قول: «أنت وكيلي»!

بعيدًا عن المخيَّم، في طرف البلدة الآخر، استأجر لي نكير، ملاك موتي الثاني، بيتًا صغيرًا مؤثَّثًا.

رجلٌ في الخمسين من عمره، لبنانيّ، متزوِّج، وله عدَّة أولاد، تكبرني ابنته بسنة واحدة.

كنت زوجه السرِّيَّة.

يأتي إليَّ مرَّة، أو مرَّتين خلال الأسبوع، يبقى لساعات.

ما إن يتخطَّى عتبة البيت، يلفّ حول عنقي رسنًا، ويسوقني كالعنزة إلى مسلخ غرفة النوم..

كلّ شيءٍ هنا بدا لي مريحًا، ولكنَّ نكير نغَّص عليَّ عزلتي المحبَّبة.

لديَّ مطبخي، غرفة جلوسٍ فيها تلفاز، سريرٌ طريٌّ، حمّامٌ نظيف لا تتزاحم عليه المباول الطافحة كما في المخيّم..

ما فعلته في أوَّل زواج، من عنادٍ ورفض، لم أعِدْه هنا في زواجي الثاني.

بدأتُ منذ ليلتنا الأولى أكذب عليه، أتركه يُصدِّق أنَّني أرغبه، وأحبّه.

لم أكن أريد العودة إلى خيمة أهلي.

كنت سجينًا لا يعارض، أحقِّق له ما يطلبه، لينهي ويرحل.

ما أجبنَ سجينًا يُقرّ بجريمةٍ لم يرتكبها لينجو من حفلة التعذيب المقرَّرة له!

بينما يرفع سحَّاب بنطاله، يبرِّرُ ساخرًا: «سأذهب قبل أن تستفقدني فزّاعة العصافير».

يضحك ضحكةً قويَّة تبرز من خلالها نيرته الزرقاء مردفًا: «صدِّقي.. لها أنياب، تعضّ».

ثم يمدُّ رقبته باتِّجاهي مُكملًا: «أمَّا أنتِ سكَّرة!»

أضحك لنكاته، أبتسم له بدلع. أتقمَّص ما تفعله البطلات في المسلسلات والأفلام.

ينظر نحوي فجأةً، يعضّ على شفته، ويضيف: «إيَّاكِ أن تغضبي منِّي لأنِّي أتركك».

أتململ في الفراش، أخاف أن يغيِّر رأيه ويبقى، أعتدل في جلستي، أقول له: «لا أبدًا، المهمّ حبيبي أن لا تتعرَّض لمشاكل في بيتك».

أريده أن يرحل. أن يختفي أسبوعًا كاملًا، شهرًا، سنة، عمرًا..

«أنتِ حلاله»، هذا ما كانت أمِّي تردِّده كلَّما رأتني، راميةً في

أذني بعض النصائح التي تجعل الرجل سعيدًا في السرير.

لتنتقل بحشريَّةٍ تسألني مطمئنَّةً عن كيفيَّة سير العلاقة بيني وبينه!

أردّ عليها بتجاهلٍ أتقصَّده: «لا أكون معه في تلك اللحظات».

كنت أزور أهلي مرَّة أسبوعيًّا، يوم الجمعة. لكنِّي لم أكن أقوى على إنهاء نهارٍ كامل معهم. أحملُ نفورًا مصحوبًا بعتابٍ وأسئلةٍ بلا جدوى.

أُهاتف نكير لكي يُعيدني.

أدخلُ إلى بيتي وحيدةً، أجرّ معي بؤسًا، كالسعال، يُلازم صدري لعدَّة أيَّام.

ورقةٌ بيضاء لا قيمة لها، تنقلبُ إلى وثيقةٍ ملكيَّةٍ تُكبِّل عمري الصغير، لمجرَّد أن يتفشَّى عليها، كالزيت، ختمُ شيخ.

كيف أملَت أبوَّة أبي عليه أن يدثِّرني «الستر» بورقة؟

«صباحنا المحمَّل برذاذ المطر لا يبشِّرنا خيرًا. وكأنِّي أسمعُ كلّ هذه القلوب تصرخ: الله لا يبعث الخير».

تتمتم أمّ سما وهي تجرّ غالون الماء من أمام الخيمة، تسكتُ برهةً ثم تتابع بعصبيَّة محاولةً كسر حَطَبَةٍ لتدكَّها في الموقدة:

«أيّ خيرٍ سيأتي على من سكنوا خِيَمًا؟ أيّ خير؟ ستكبرُ الخيمة إن تشبَّعت ماء؟ وتزهر لهم ثمرًا يقطفونه صيفًا، فيرتوون ويشبعون؟!»

تتجاهل سما أمّها، تُسارع بتبديل ملابسها بصمتٍ ثقيل. تستقرُّ مسافاتٍ بينهما على الرَّغم من ضيق الخيمة.

تحاولُ أمّها مرارًا التقرُّب منها، لكنَّ سما تُبدع بخلق مساحاتٍ جديدةٍ مُمتدَّةٍ شائكة يصعب قطعها أو تقليصها.

حين ارتضت أمّها بتزويجها وهي فتاة في الخامسة عشرة،

ألبستها ذلك الفستان الأبيض، بعد أن أزالت الشعر المتكاثف عن جسدها لأوَّل مرَّة. جهَّزت لها قمصان نوم من دانتالٍ رخيص، شبه عارٍ. منذ ذلك اليوم، انقطع الحبلُ السرِّيّ الذي يصلهما.

لم تعرف سما كيف تسامح، بالرَّغم من تسويغ أمّها المتكرِّر: «لقد تزوَّجتُ صغيرة، ولم أكره أمِّي يا سما».

تجاوب سما بعناد: «ربَّما كرِهْتها ولم تعترفي لنفسك بعد».

تزوَّجت أمّ سما بعمر السادسة عشرة، وانتقلت إلى قرية زوجها البعيدة عن قرية أهلها. في بداية زواجهما، كان أبا سما يضطرّ إلى تركها ليومَيْن متتاليَيْن مرَّةً كلّ أسبوعٍ بسبب ارتباطه بعملٍ جزئيٍّ في ورشةٍ للخياطة في العاصمة دمشق. تبقى فيهما أمّ سما وحيدة في منزلهما النائيّ، يطرق نوافذها عواء الكلاب السائبة التي تحوم حول البيت. تتأمَّل الجدران ويُخيَّل إليها أنَّها تهاوت وتحطَّمت، ثم اختفت، فتُسرع الريح لتغلغل في ثنايا ثوبها، تمزِّقه وترميه عنها، فتبقى هي كتلةَ لحمٍ تتحلَّق حولها الحيوانات المفترسة، تلك التي تنزل من الجبل القريب، تشمّها ثم تتصارع على التهامها..

يسحبها فزعُها لتكون فريسةً سهلةً للأوهام.

لم تلم أهلها، لم تلم زوجها، بل روَّضت نفسها أن تتآخى مع وحشة العزلة. لكنَّها لم تقوى، كان الهدوء يوقظ بعقلها الأبالسة وقصصها المخيفة.

فشرعت منذ تلك الأيَّام على قراءة القرآن بشكلٍ يوميّ،

خاصَّةً حين يقدم الليل.

لم تردَّ قراءةُ الآيات عنها الخوف، أوقفت سرعةَ تفشِّيه في نفسها لا أكثر!

بدأت تنمو لديها وساوس الأحلام، تؤمن بها، ترى فيها رسالةً تحذيريَّة من الله، أو نبوءةً بما يمكن أن يحصل معها.

تحلم، أيًّا كان شكل الحلم ومضمونه، تفسِّره وتؤوِّله بطريقةٍ غريبة غير منطقيَّة.

حدث ذات ليلة من ليالي الشتاء الباردة أن سمعت خطوات على سطح البيت.

قطَّة، كلب، أو ربَّما كائنٌ بشريّ.. لم يتبيَّن لها هويَّة صاحب الخطوات، فقد تكوَّرت تحت اللحاف حتى الصباح، من دون أن تُغمض أبدًا، تستذكر الحلم الذي رأته: إنَّها تمشي فوق سطح عالٍ، ثم فجأةً هوت».

تحلِّله وتفسِّره بأنَّه إنذارٌ ربَّانيٌّ لها، وبقيت تبكي طيلة الأيَّام التي تلت تلك الليلة.

هل كانت أوهام؟ أم أنَّها فعلًا سمعت وقعَ أحدِهم فوق سقف بيتها الذي يغلِّفها ويحميها؟ كانت تتدوى بالآيات، لكنَّها لم تُعالَج. بدأت علامات العصبيَّة والنفور تبرز بتصرُّفاتها، حتى أصبحت أشبه بمخلوقٍ عدائيّ.

لم يستطع أبو سما ترْك العمل بسرعة، كان عليه أن ينتظر مدَّةً لكي يجد صاحب الورشة بديلًا عنه. في هذه الفترة رحلت أمّ

سما إلى قريتها ومكثت عند أهلها.

لم تشتكِ لهم، كانت تخاف أن تفكِّر. اعتادت أن ترى الفتيات من عمرها أو أصغر بقليلٍ متزوِّجاتٍ، وهذه عادةٌ نشأت عليها. لم تعتد الاعتراض، وهو من المحظورات. كانت صغيرة، وكانوا ينظرون لها على أنَّها امرأةٌ متزوِّجة، إذًا كبيرة.

في أوَّل ليلةٍ لها في بيت أهلها، عصيَ عليها النوم، لم تغفُ إلَّا في ساعات الصباح الأولى. قضت ليلتلها تحملق بفراش أمّها، وفكَّرت حينها بحقدٍ برزت علاماته كبثور الجدريّ: «كيف طاوعك قلبُكِ أن تتركيني أبتعد عنكم؟»

راودها حلمٌ غريب في تلك الليلة، لم تتجرَّأ على سرده على مسامع أحد. اكتفت بالقول: «رأيتُ حلمًا، أخاف من عواقبه». ثم على إثر حلمها لجمت لسان عقلها، وقطعت رؤوس الأسئلة التي التفّت بقلبها كثعابينَ سامَّة.

وسامحتْ.. ورضيتْ.. ونسيتْ، أو هكذا خُيِّل إليها طيلة عمرها.

تحرِّك سما يديْها سريعًا، تُخبِّئ ببطانة حقيبتها المخفيَّة عقدًا من الذهب، إسوارةً تتدلَّى منها أقمارٌ ونجومٌ صغيرة، حَلَقًا طويلًا بطاباتٍ ذهبيَّة، وخاتميْن أحدهما محبس.

تعتمر قبَّعةً سوداء سميكةً فوق حجابها، وتنتعل جزمةً بلاستيكيَّة.

يتجهَّم وجه أمّها، تحاول منعها من الذهاب إلى العمل في

الحقل، مردِّدةً على مسمعها كلامَ الناس الذي سيتطاير فوق رأسها؛ أنَّه لا يجوز العمل قبل أن ينتهي أسبوع الحِداد.

أمام الخيمتيْن، تحت حبلٍ للغسيل يتمرجح بالهواء بلا أيَّة قطعة، تُخرجُ سما الجورب، تكاد أن ترميه ليستردَّه صاحبه، لكنّها تُعيد دسَّه مُجدَّدًا في البطانة.

كانت قد أمضت ليلة أمس ترتقه، ثم تفتقه.

كيف يمكنها بجوربٍ مثقوب أن ترتق ثقوبَها الآخذة بالتوسُّع؟

تتراكض الفتيات والنسوة وبعض الفتية، ليملأوا خلفيَّة البيك آب الذي يقف أمام مدخل المخيَّم، يطلّ السائق برأسه من النافذة يُشير بيده إلى وجوب العجلة.

يتهافتون إلى العمل، علَّهم يحصلون اليوم على بدل أتعاب عشرة أيَّام من الوكيل عن صاحب الأرض؛ أمَّا حين يسألون عن أجرتهم، يرفع كتفيْه إلى الأعلى مُجاوبًا:

«لا تطالبوني أنا، اذهبوا إلى شاويشكم، فإنِّي قد نقدته بدل أتعابكم منذ الأسبوع الماضي، ربَّما اقتطع أجرةَ خِيَمكم».

منحشرون ببعضهم بعضًا، يرتجُّون مع البيك آب المُسرع، كلَّما هوى في حفرةٍ تتقافز أحلامهم فوق رؤوسهم لتشكِّل مظلَّةً تحميهم من نصل الأمطار.

ينتشرون في الحقل الموحل، بأيديهم المعفَّرة بالتراب،

بظهورهم المقوَّسة كالطابات بين الأثلام بمسافاتٍ شبه متساوية.

تقترب عليا من سما التي تقوم بفرز حبَّات البطاطا الجيِّدة بمزاجٍ سيِّء، تنقر على ذراعها، تقول:

«عمّكِ سيزوِّجكِ من الشاويش فور انتهاء الأربعين، أليس كذلك؟ يا له من شيطان!»

تتحسَّس سما حقيبتها كي تطمئنّ على ما خبَّأت فيها، ثم تسألها: «مَن الشيطان؟ عمِّي أو الشاويش؟!»

تضحك عليا كأنَّها تعدِّد أشياءَ حفظتها وعلِقَتْ برأسها جيِّدًا: «عمّكِ، الشاويش، الوكيل، الحاج.. كلّ الرّجال».

تهمهم سما: «لن أكون هنا عند انتهاء الأربعين، فليجد له عروسًا أخرى».

لكزتها عليا على قدمها متسائلةً بسخرية: «أين ستكونين يا مجنونة؟!»

قبل أن يشارف اليوم على الانتهاء، تنفض سما عنها التراب، وترمي من كفِّها حبّاتِ البطاطا الصغيرة، تتَّجه نحو الوكيل لتستأذنه بمغادرة الحقل.

يشير إلى العمَّال المبعثرين في الحقل، قائلًا بتعالٍ: «كلّ يوم يرحل واحد منكم، تريدون أن تتملَّصوا من العمل! لا تأتوا أساسًا».

تلحق بها عليا، تتدخَّل بينها وبين الوكيل: «لو تسمح، فأبوها توفِّي منذ أيَّام».

ثم تُكمل بنبرةٍ مستعجلة: «وأنا أيضًا سأذهب إلى منزل الحاج».

يغمز الوكيل عليا مردِّدًا: «ستّ عليا، المهمّ أن لا يزعل الحاجّ».

يُبقي بصره معلَّقًا على عليا التي لم تردّ متظاهرةً بإعادة ترتيب غطاء رأسها، ثم يلتفت إلى سما ويضيف: «اذهبي، ولكنَّ اليوم غير محسوب».

بعدها يردف، وكأنَّه تذكَّر شيئًا غير مهمّ: «رحم الله أباك».

تهرول سما وعليا مبتعدتيْن عن الحقل، لكلٍّ منهما وجهتها.

تسألها سما كأنَّها اكتشفت موردًا جديدًا: «عليا، هل أنتِ مرتاحة في العمل الإضافيّ في منزل الحاج؟»

تُجيب عليا بتسليم: «إنَّه أقلّ تعبًا من العمل في الأرض، فالموسم الزراعيّ ليس دائمًا، بينما المنازل تتَّسخ باستمرار».

تواصل كلامها بنبرةٍ أقرب إلى الحزن منها إلى الرّضا: «سأتحمَّل، وإن كان لا يؤمِّن لي إلّا سعر الحليب لابني. ماذا أفعل؟ تعلمين أنَّ زوجي مدفونٌ في سجنٍ أو في مقبرة».

سما، ككلبٍ ساذج يشتمّ فريسةَ غيره، تقول بإلحاح: «هل يريد عاملات إضافيَّات في المنزل؟»

تردّ عليا بطريقةٍ قاطعة لتُنهي الحديث: «لا أظنّه يريد، حتى أنا لا أذهب كلّ يوم».

تُمسك عليا بالطريق المؤدِّية إلى منزل صاحب الأرض.

جلبابها لا يساعدها. تهرول هاربةً من عفنٍ في خبز، من دودٍ يغرق بماء..

تدخل منزل الحاجّ مرتديةً كلّ ثقل الطّين، تخلع حجابها وجلبابها، ثم تبدأ بتنظيف منزله، تُزيل الغبار لتجدِّد أشياءه الطاعنة في السنِّ، تلعقها بلسانها، تتسلَّق الأدراج الهرمة بمؤخّرتها.

تُفرد شعرها صعودًا ونزولًا على الأرضيَّة، إلى أن تصدر صوتًا يئزُّ من كثرة البياض المتدفِّق.

تنهي أعمالها ولكنَّ البيوت تتَّسخ باستمرار!

يمدّ الحاجّ يده برخاوةٍ نحو الجارور القريب من سريره واضعًا بصدرها الكبير نقوده.

ترحل متَّجهة إلى المخيَّم، تحمل بيديْها حليبًا طازجًا لطفلها.

تتَّخذ سما طريقًا أخرى تؤدِّي إلى سوق البلدة، تصل محلّ الذهب الوحيد.

تُخرج من البطانة المخفيَّة عقدًا، إسوارةً تتدلَّى منها أقمارٌ ونجومٌ صغيرة، حَلَقًا بطابات، وخاتميْن أحدهما محبس. تُلقيهم على الكنتوار، كأمٍّ تضع رضيعها في مهده: «أريد أن أبيع ذهبي».

بعد أن وزنهم الصائغ، حسب قيمة الغرام. قال لها: «900$».

تحملق به، وبفمٍ مفتوح تردّ: «تساوي أكثر بكثير».

يسحب ممتلكاتها من على الميزان، ويُجيب متفهِّمًا:

«هذا سعر الذهب اليوم».

قبل أن تغادر المحلّ، وفي لحظة انشغال الصائغ باستقبال سيِّدة، تشعر سما أنَّ يدها اليسرى خفيفة. تمدّ أصابعها، تنتشل مسبحةً بلاستيكيَّة بحبوبٍ زرقاء مهملة على طرف الكنتوار.

تدسّها في بطانة حقيبتها الصوفيَّة، وتمضي.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

مضت شهورٌ لي في بيت نكير، أُغالب اليأس. أغلبه، ثم ما ينفكّ يغلبني.

الحياة بأعماقي مياهٌ راكدة، لا شيء يمكنه تحريكها، أو إحداث تغيِّرٍ مهما كان تافهًا.

حتى زياراتي إلى المخيَّم اختزلْتُها لحدٍّ أقصى.

دخلت في دوَّامةٍ لا تهدأ، أسال نفسي بشكلٍ مستمرّ: «ما الجدوى من حياتي؟!»

كيف يمكنني أن أصبح مصمِّمةَ فساتينَ بيضاء وأنا هنا لا قدرةَ لي على تأمين الخيوط اللازمة لحياكة حلمي؟

ما نفع وجودي؟

سوى أن أكون زوجًا في فراشٍ لبضع ساعات، ثم لا شيء.

وإبنةً خُلقت لتكون سببًا لبضعة كيلوات من اللحم تصل إلى أهلها من زوجها، ثم لا شيء.

في لحظات إحباطي، كنت أصرخ، وليسمع كلّ من في السماوات صوتي!

ثم ما ألبث أن أهوي إلى آخر سطحٍ في داخلي، أرتطم وأسمع صوتَ ارتطامي. فأستسلم لليأس من جديد.

وسط هذا الجوِّ الذي أحياه، جنينٌ بدأ يشاركني وحدتي!

لم أكن أتصوَّر أن أحمل من نكير، ظننتُ أنَّني سأنجو من هذا الزواج كما حدث في أوَّل مرَّة.

«لا أريد هذا الطفل»، قلت للقابلة القانونيَّة في مستوصف البلدة.

شهقت أمِّي، ضربتني بظاهر كفّها على رأسي، وأكملت تستغفر ربّها.

نظرت نحوي القابلة بعينيْن ممتعضتيْن، وقالت:

«لا نقوم بأيَّة عمليَّة إجهاض. هذا ممنوع.. وأيضًا حرام»!

«حرام» كلمة أخرستني لأيَّامٍ طويلة.

وضعوني في سجنٍ صغير، رغمًا عنِّي!

في أحشائي سجنٌ كبيرٌ أبديّ، يُهيَّأ، رغمًا عنِّي!

لقد فكَّرت لآلاف المرّات. يمكنني انتزاع قطعة اللحم هذه من رَحِمي، وأرمي بها من شبّاك غرفة النوم، من المكان الذي نبتت فيه من غير رغبتي ورضاي.

ماذا سيحدث إن تخلَّصت منها قبل أن تكبر؟

ثم أجد نفسي قد غرقتُ بفكرةٍ أخرى، أشدّ خطورةً من التي سبقتها.

إنَّني انتشلتها حقًّا، وقد أصبحت قطعةَ لحمٍ كبيرة، نبت على أوَّلها عيْنان وأنف وبآخرها أصابع..

ثم تكبر إلى أن تصبح عملاقةً بحجم غرفة، فتبتلعني إلى داخلها وتنهشني..

في الزيارة الثانية للقابلة، دهنت على بطني تلك المادَّة اللزجة، ثم وضعت فوقها الآلة الفاحصة.

دلَّت إلى الشاشة، تشرح لي: «أنظري إنّه هنا، نقطة، قطعة لحم صغيرة».

ثم فجأةً ابتسمت، تلتفت نحوي قائلة: «انصتي، إنَّها دقَّات قلبه.. سبحان الخالق».

كنتُ طفلةً تحمل في أحشائها طفلًا.

كنتُ مجرمةً، وكانوا مجرمين أكثر منِّي.

يحوم باسل عند مدخل المخيَّم طيلة بعد الظهر، بعد أن أنهى عمله في ورشة بناءٍ أمَّنها له الشاويش. يلُفُّ، يدخِّن، ويرمي. ينتظر هدير البيك آب، آتيًا له بسماه..

يُرسل أخته ورد لتتفقَّدها، إن كانت في خيمتها لتخبرها أنَّه في انتظارها.

يناديه أحد معاوني الشاويش: «الشاويش يسأل عنك».

«هذا المخيَّم أقذر من الحرب التي وقعت فوق رؤوسنا».

تبربر امرأةٌ مسنَّة، تمرّ بجانب باسل، تبحث عن بقعة شمسٍ لتدفِّئ عظامها.

ينتظر باسل الشاويش ليُنهي فرز الكراتين المتراكمة مع أكثر من معاونٍ له من شبَّان المخيَّم.

توزَّع المساعداتُ على الخِيَم والعائلات بحسب ما يروق للشاويش.

دعاه الشاويش بحركة من يده إلى الجلوس على كنبةٍ صغيرة، وانشغل عنه لاستكمال فرز الكراتين المتراكمة عند الزاوية الداخليَّة للخيمة مع مُعاونيه، وكلُّهم من شبَّان المخيَّم.

يجول باسل بعينيْه داخل الخيمة التي تغيَّرت عليه قليلًا، فهو لا يدخلها بشكلٍ مستمرّ. بدت له أشبه بغرفة فندق، مرتَّبةً بشكلٍ لافت بالمقارنة مع باقي الخيم المفتقرة إلى أبسط الأشياء. تتدلَّى من سقفها ثلاث لمباتٍ كالثريَّا، تلفازٌ ملوَّن وُضع على طاولةٍ صغيرة مغطَّى بشرشفٍ أحمر منقَّشٍ برسومٍ صغيرة، وموقدةٌ تهدر من كثرة ما تتعارك النيران ببطنها..

يلاحظ باسل العكَّاز الملعونة لعمٍّ سما مرميَّةً خلف الستارة.

كان قد سحبها الشاويش من تحت إبط عمِّها الذي حاول أن يتَّزن بوقفته على قدمٍ واحدة، وقال له ملوِّحًا بها أمام كلّ من في المخيَّم: «هذه العكَّاز عندي إلى أن تُبرم كلمتك».

يفكِّر باسل لو يسحبها ويضرب بها الشاويش على رأسه، ما إن يهوي، يقلبه على ظهره، يركب فوقه، ينهال على وجهه بالضربات إلى أن ينهار، فيغرز أصابعه بعينيْه اللّتين يتشهَّى بهما سما، ثم يكدِّس كلّ تلك البطَّانيَّات والكراتين فوقه إلى أن يقضي.

يقترب الشاويش من باسل يحكّ أذنه بظفر خنصره الطويل،

يرتعب باسل من فكرة أن يكون قد استطاع قراءة أفكاره، وخُيِّل إليه أنَّ نمش الشاويش البنِّيّ ذباباته الملتصقة بجلده، ستتطاير وتهجم عليه.

يسأله الشاويش: «ماذا تفعل في هذه الليالي؟»

يكمل غامزًا بعينه: «مشغول بالدّوران حول الخيم؟»

يرتبك باسل كجرذٍ عالقٍ في مِصْيَدة، يجاهد اللفظَ بشكلٍ متواصل، مُخفيًا تأتأته: «لا أتعرَّض لأحد، أ.. أ.. أتمشّى».

يقاطعه بمودَّة: «إذًا مغروم، قر، لأزوِّجك الليلة»!

يعدِّل الشاويش من جلسته، ويتابع بنبرةٍ مختلفة محمَّلةٍ بالجدِّيَّة:

«جهِّز نفسك اليوم، لديك مهمَّة، فقد مضى وقتٌ لم نرسل شيئًا إلى الشباب في الجرود».

يمدّ يده نحو كراتين وأغراض رُصفت بالقرب من باب الخيمة، يُضيف: «ستأخذ هذه البضاعة مع الشيخ طٰه، ومن الممكن أن تبقيا ليومَيْن أو ثلاثة، بحسب الوضع الأمنيّ».

يردّ باسل متهرِّبًا بأحرف متقطِّعة: «لا يمكنني أن أترك الورشة، انبرت قدماي حتى وجدتها».

يجاوبه الشاويش بسخرية: «انبرى لساني لأدبِّر لك عملًا، وأنت ممنونٌ لقدميْك؟»

مثل كثيرين هنا، يقدِّم باسل تنازلاتٍ للشاويش لإرضائه.

لم يكن يرغب بالذهاب، ولا بأن يحمل معوناتٍ للمقاتلين المتَّخذين من الجرود مساكنَ لهم.

لكنَّه مجبر، فهو مديونٌ للشاويش بالمبلغ الذي تكلّفه لإحضاره وأهله إلى هذا المخيّم.

هربوا من الحرب الطاحنة في بلادهم، فانطحنوا هنا تحت حكم الشاويش في بلاد غيرهم...

«باسل»، هذا الاسم لم يكن خيارًا موفَّقًا من جدِّه. فمنذ واحد وعشرين عامًا، حين وُلد، سُمِّي نسبة لإبن الرئيس المتوفَّى، المعلَّقة صورته ذات البرواز الذهبيّ على الحائط الكبير في صالون البيت.

بعدها بسنين طويلة، اندلعت شرارة الحرب، فانتفض أبو باسل، وانتزع الصورة، ثم كسرها شاتمًا: «لا أريد صور أمواتٍ هنا».

بقي باسل عالقًا باسمه، لا يتوافق مع ما يرمز إليه اسمه من دلالة، ولا مع من بات يؤمن أبوه بهم الآن.

هو باسل اللّامنتمي.

«صالون شروق للنساء» كرڤانة وُضعت بالقرب من مخيَّم الوطن.

فتيات يدخلنها، يعبرن ممرًّا مظلَّلًا بالأحلام الورديَّة، ويخرجن عرائسَ بمساحيقَ رخيصة على وجوههنَّ.

يدور فستانٌ أبيض عليهنَّ كلِّهنَّ، يملأه الخرز اللامع، بطرحةٍ تُجَرُّ وراءهنَّ كانسةً أيَّامهنَّ الطفوليَّة وصولًا إلى عَتَبة خيمة العريس.

فتتكشَّف لهنَّ هناك الأحلامُ المطرَّزةُ بالأشواك.

يمسحن وجوههنَّ، يرسو الصمت على الشفاه التي نطقت برضا أو بغير رضا: «أنت وكيلي».

جملةٌ صغيرةٌ من كلمتيْن «أنت وكيلي»، سحبتهنَّ إلى قنِّينة الزواج المبكر، بسدَّةٍ محكمة «الشرع».

الزواج المبكر سمٌّ محلّى بالفراولة!

شروق صاحبة الصالون، البالغة ستَّة عشر عامًا، بقيت مع زوجها أشهرًا قليلة، ثم تركها.

قال لها قبل أن يختفي بليلة واحدةٍ: «أشعر أنَّني أضاجع دميةً من قماش كقماش هذه الخيمة الرثَّة».

رحل ولم يطلِّقها. لكنَّها صمَّمت أن تكسب حرِّيَّتها، افتتحت صالون تزيين نسائيّ، في كرفانة صغيرة، استأجرتها من الشاويش. جهَّزتها بأبسط المعدَّات والمساحيق بمساعدة جمعيَّة نسائيَّة، وأخذت من سما فستان عرسها الأوَّل، لتُؤجِّره للعرائس بمئة دولار أميركيّ، تتقاضى منها سما عشرين دولار.

تُزيِّن وجوهًا، وتُؤجِّر فستان زفافٍ للكارجات نحو القفص. علَّها تعتق روحها!

تتَّجه عينا سما إلى الفستان الأبيض المعلَّق على الحائط. تُوضِّب شروق مساحيق التجميل مراقبةً سما، فتسألها ممازحةً: «انتابك الحنين لأنكر؟»

تُجيب سما كأنَّه انتابها شعورٌ مقزِّز: «ماذا كنت تقولين للعرائس اللواتي لبسن فستاني؟»

تكمل وكأنَّها تريد أن تخلص من شيءٍ يلاحقها:

«هل تقرضيني مئتي دولار قبل الأربعين؟»

تجمَّدت شروق مكانها، تتطلَّع إلى سما مستفهمةً: «ما حاجتك لهذا المبلغ؟»

تقول سما وهي تمسك بفستانها المعلَّق: «أريد أن أخلع هذا عنِّي».

ترغب سما بخلع هذا الفستان عنها، لتتمكَّن من ارتداء فستانٍ آخر، لا يشبه فستانها الذي لبسته وقت تزوَّجت بمنكر، ولا يشبه باقي الفساتين اللواتي يلبسنهنَّ الفتيات العرائس في المخيَّم..

تبدأ بتفصيل وخياطة الطَّرْحة، فتلملم من أماكن مختلفة ثيابًا قديمةً بيضاء، شرشفًا تقصّ أطرافه، فضلات قماش. تدور أيضًا على الخِيَم تسأل عن أغطية رأسٍ قديمة، تجدُ تقاربًا بين قماش الحجاب وقماش فستان العرس.

ثم تقوم بفرزها وقصِّها لتنتقي الأفضل منها.

تجمع أيضًا خيوطًا تُحيك بها ورودًا بأحجام صغيرة تملأها بالخَرَز الملوَّن، تُجهِّزها لتصنع منها تاجها الذي ستُعلِّقه بالطرحة.

فيما بعد، حين ستُنهي خياطةَ الفستان كاملًا، سترتديه لباسل كما تحلم، كأنَّها عروسٌ لأوَّل مرَّة في حياتها!

الاسم: سما

العمر: 17 عاما

الحال الاجتماعية: مطلقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

لم أزر القابلة منذ آخر مرَّة، حين سمعت دقَّات قلبه. أشعر بحركاته، وأعلم أنَّه يكبر، ماذا يريد منِّي؟

أخاف، كلّما نتجت عنه حركةٌ مهما كانت خفيفة. أفكِّر أنَّه يعلم بما كنت أضمر له.

ذات يوم من أيّام الشهر السادس، شعرت أنّني لستُ بخير.

تقلُّصاتٌ قويَّة تضغط على أسفل بطني، ثم بدأت ترافقها تشنُّجاتٌ مؤلمة.

شربت كوبًا من اليانسون الساخن، وحاولتُ أن أنام ظنًّا منِّي أنِّي تعرَّضت لنوبةِ برد.

في منتصف الليل، اشتدَّ الوجعُ إلى حدٍّ غير محمول. تحسَّستُ بشكلٍ مفاجئ شيئًا دافئًا يسيل بين فخذيَّ، كان سائلًا كالماء، ثم ما لبث أن تحوَّل إلى دم. كلّ الذين كانوا سببًا بما أنا فيه، لم يكن أحدٌ منهم معي!

بقيت أتلوَّى وحدي في المنزل.

في ساعات الصباح الأولى، كنتُ في المستوصف.

تُحرّك القابلة الآلة على أسفل بطني، أحملق إلى الشاشة بألوانها البيضاء والسوداء، أنتظر أن أسمع دقَّات قلبه.

لكنَّه لم يدقّ!

سأل نكير عن سبب موت الجنين، أجابت القابلة:

«هذه مشيئة الله».

بدأت القابلة تحاول سحب الجنين من أحشائي، مع كلامها الذي يتراكم: «هيَّا ساعديني.. اضغطي قليلًا.. إن لم نخرجه قد يتسمَّم جسمك كلّه»

أمِّي تشدّ على يدي، تقرأ آياتٍ قرآنيَّة وأدعية، ثم تُعيد كلام القابلة فوق رأسي. تستغفر، ثم تهمهم مكرِّرة: «رأيت حلمًا، وتحقَّق».

كنت أسمع كلّ شيء، لكنِّي لم أكن أقوى على القيام بأيَّةِ حركة، ولا بأيَّةِ ردَّة فعل..

كيف انفصل الجنين عنّي؟ لا أذكر سوى أنَّني لمحت طرف رأسه الممعن في الصغر، تلفُّه الممرِّضة المساعدة، وتخرج به.

بقيتُ في غرفةٍ داخل المستوصف طيلة النهار، أنتظر الطبيبة لتعايني.

حين أتت، سألتها سؤالًا واحدًا: «لماذا حدث هذا لجنيني؟»

قالت ببساطة: «يحدث هذا في أغلب الأوقات مع الفتيات الصغيرات سنًّا، فالرحِم لا تكون جاهزة للحمْل بعدُ من حيث الشكل المطلوب».

فكَّرتُ في نفسي: «لو علم الله، الشيخ، عمّي، أبي، وأمّي، لوفَّروا عليَّ كلّ هذا الألم»!

منذ ذلك اليوم، انحفرت في داخلي حفرةٌ، كلَّما حاولت ردمها اتَّسعت عمقًا...

كان النهار قد أفل، تغالب الشمسُ بما تبقَّى منها غيومَ أيلول المتجمهرة أمامها سامحةً للَّيل بالمرور والسيطرة.

يركنُ باسل في فمه سيجارته اللفّ، قريبًا من كرڤانة شروق، يحاول ليَّ عودٍ يابسٍ ليكسره. رأته سما ينتظرها، تمشي نحوه تتأمَّله، ينتبه لها فيخفق قلبها، يبتسم لها مرسلًا تلك الضحكات الصغيرة التي تفترش في رأسها أسرَّةً من زهور، تحنِّطها لتغفو في داخلها لأطْوَل وقتٍ ممكن.

يرمي سيجارته، بالرَّغم من عدم انتهائها، يمشي باتِّجاهها طاويًا الزمن بكلِّ خطوةٍ يتقدَّم بها.

ينسحبان بعيدًا عن العيون والخِيَم.

يقول لها بعتابٍ مُتخطِّيًا تأتأته بطريقةٍ يتقنها: «انتظرتك طيلة النهار، أين كنتِ سمائي؟»

سما قريبةٌ منه، تقف أمامه بدقَّة، تبعد عنه مترًا واحدًا. تتشرَّب كلّ ما في وجهه، وإن أرادت أن تقترب أكثر، لالتحمت به.

تقول بكلماتٍ عجولة لتموِّه انجذابها إليه: «لقد بعت ذهبي».

يكرِّر ما كان يقترحه عليها دائمًا: «تعالي لنبتعد إلى مخيَّمٍ آخر، ونتزوّج هناك».

ثم يضيف: «سأحصل على مستحقَّاتي من الورشة خلال أيَّام، تقريبًا بحدود 200 $، تُضاف إلى المبلغ الذي بحوزتك الآن..».

تقاطعه بعيونٍ حادَّة: «حلمي ليس في هذه الأرض.. إن كنت لا تريد السفر، إبقَ!»

يأخذ باسل كفَّها، يجول بنظراته التي تحبّها سما على كلِّ بقاع وجهها، فهو ينظر بشكلٍ رائع، يعبُّ نَفَسًا عميقًا ليخفي لذَّةً تعتريه، يقول محاولًا الكلام بشكلٍ متواصل: «لا تقلقي سمائي، سنرحل».

من المؤكَّد أنَّه لو لم تتعارك طاحونة الهواء مع الهواء، لما أُنتجت الحركة بالطاحونة.

يعدِّل وقفته، يقترب خطوةً من سما، يلتصق بها، ترتجف مطأطأة.

يرفع رأسها حانيًا بجذعه نحوها، متشمِّمًا أنفاسها، يشدّها إليه بقوَّة، حتى يُذيب كلّ الأبواب المرئيَّة واللامرئيَّة الشاهقة كالجبال الجليديَّة بينهما.

يقبِّلها كأنّه يُجاهد كي تولد حياةٌ في هذه اللحظة، من هذه القبلة.

تستسلم كأنَّها لم تُقبَّل من قَبْله، لا من «منكر» ولا «نكير»، كأنَّ باسل أوَّل رجلٍ تخطَّى حدود شفتيْها.

على الرَّغم من السترة التي يهبها الليل، تبتعد عنه مخافةَ أن يلمحهما أحد، ولكنَّه يُحكم قبضته عليها، مانعًا إيَّاها من العودة إلى صحرائها، قبل أن يغرس في فمها كلّ أشجاره، لتظلِّلها حين تكون بعيدةً عن خصب ذراعيْه.

تحاول أن توقف زحف شفتيْه، لكنَّها أخيرًا تتسربل ككافرةٍ إلى جنَّته.

قبل أن ينتشر الضوء، يصل باسل والشيخ طٰه وشابَّان آخران إلى الجرود.

مشوْا ما يقارب الساعتيْن، من النقطة التي ترجَّلوا فيها من السيَّارة.

اسمه باسل، محسوبٌ هذا الاسم على أتباع ومناصري النظام. ولكنَّه الآن في هذه اللحظات ينقل، على مرأى من ملكَيْه، المساعدات لمن هم في الطرف الآخر ضدَّ النظام.

يحمل بكلتا يديْه كراتين محشوَّةً بالمؤن الغذائيَّة. يُسرع الخطى، ثم يتوقَّف.

تتجاذبه الاتِّجاهات، إلى أيِّ فريقٍ ينتمي؟

ما بين النظام الديكتاتوريّ والجماعات الدينيَّة المسلَّحة، يتسمَّر باسل كأنَّه صخرة. يناديه الشيخ طٰه مستعجلًا إيَّاه.

لم ينجح بأن يرسم خطًّا لأفكاره، بمعزلٍ عن ولاء جدّه للنظام القائم، وتخلّي أبيه عن هذا الولاء.

يتخبَّط باسل بين جدران اللاانتماء العالية. يريد أن ينجو، أن ينجو فقط.

يرسو في كهوف يسكنها أُناس كالبشر القدامى، بلحًى مكتظَّةٍ، وعقولٍ فارغة.

اتَّخذت هذه الجماعات من جرود لبنان، الواقعة بمحاذاة الحدود السوريَّة، ملجأً لها لقربها من المناطق التي تقاتل بها من جهة، ولقربها من البلدة اللبنانيَّة التي كانت معبرًا سهلًا لهم لضمِّها لآلاف اللاجئين السوريِّين فيها، غالبيَّتهم من المعارضين للنظام.

مقاتلون يسكنون الكهوف والمغاور، بأسلحتهم ونسائهم، يجدِّدون طاقاتهم هنا. يرتاحون، يتداوون من جراح القتال، ثم يعاودون توزيع أنفسهم على المناطق المحتدمة بالاشتباكات من جديد.

يكدِّس باسل الكراتين عند مدخل إحدى المغاور، يهمّ بالعودة إلى المخيَّم على الرَّغم من المخاطر التي قد يواجهها، لكنَّ الشيخ طٰه يقول بما يشبه الأمر: «نعود كما أتينا معًا، أركن هنا».

مع بدايات الفجر، وصل خمسة جرحى، سُحبوا من أرض المعركة في الجهة السوريَّة، إلى الجرود، لمعالجتهم.

يستنفر الجميع.. النسوة يهرولن، يحضِّرن للرجال المناشف المبلولة بالمعقِّمات، يجهِّزن الأدوية والمراهم.

بعد أن مرَّ ما يقارب الساعتيْن، يتقدَّم الشيخ طٰه نحو باسل ورفاقه ليبلغهما ما تقرَّر: «الوضع لا يطمئن، شابَّان من الإخوان بحالةٍ حرجة، سننتظر حتى الليل لننقلهما إلى المخيّم».

تفرط سما الحبَّات الدائريَّة للسبحة التي سرقتها من محلِّ الذهب، فتتناثر بحضنها الحصوص البلاستيكيَّة الزرقاء، لتجرّها ذاكرتها إلى مدرستها مع صديقتها نغم.

أسرَّت نغم لسما بأنَّها مغرمةٌ بصبيٍّ يكبرهما بصفٍّ واحد، وطلبت منها أن تكتب لها رسالةَ حبٍّ، أرفقتها بخاتمٍ ذي حصٍّ أزرق سرقته من دُرْج أبيها.

خبَّأت سما الرسالة والخاتم في البطانة المخفيّة في حقيبتها الصوفيَّة. عندما أخرجتها لتُعيد قراءتها، وقعت بيد معلِّمة اللغة العربيَّة.

راحت المعلِّمة تقرأها مرتشفةً لعابها المتكاثر كرغوة صابونٍ في أطراف فمها.

مسكت سما من أذنها حتى خارج الصفِّ، أوقفتها أمام

مكتب الناظر، ثم وضعت أدلَّة الجريمة بين يديْه. تشاورا، من بعدها انطلقا في الممرِّ، تتبعهما سما إلى مكتب المدير.

ماذا اقترفت يداها من خطيئة؟!

سألها المدير: «لمن كتبتِ الرسالة؟»

في تلك اللحظة، انقسمت سما إلى أرضيْن، لكلٍّ منهما زلزالها:

فإن أقرَّت بأنَّ الرسالةَ لنغم، سوف تخسر صداقتها. وإن كذبت، وقالت بأنَّ الرسالة لها، سيُحكم عليها.

أيُّ زلزالٍ أخفّ؟!

قال لها الناظر بنبرةٍ عصبيَّة: «تكلَّمي؟»

تكاثر اللعاب حول فم المعلِّمة التي قالت، محاولةً تبرئة نفسها: «والله، إنَّها من التلميذات العاقلات. أستغرب كيف أقدمت على هذا الفعل؟!»

في عمر الثانية عشرة تحاكم. كيف لكلامٍ بريءٍ أن يزجّ بها وسط هذه المحاكمة؟

تلجأ سما للبكاء، فسألها المدير بلهجةِ محقِّقٍ قديم: «أنتِ نادمة؟»

ازدردت ريقها، وشهرت صوتها المخنوق: «الرسالة ليست لي».

ابتسم المدير ابتسامةً دلَّت على أنَّه يتوقَّع هذه الكذبة.

عادت سما، وقالت له بصوتٍ مسموعٍ وواضحٍ أكثر: «أقسم إنَّها ليست لي، إنَّها لنغم».

اختارت زلزالًا أخفّ دمارًا على نفسها. لكنَّها لم تنجُ.

استدعى مدير المدرسة أهلها. حضرت أمّها، تحدَّث معها بجدِّيَّةٍ مبالغة:

«ابنتها على وشك الوقوع في هاوية، ولا أريد لبقيَّة الفتيات أن يقلِّدنها في ذلك».

صرخت بها أمّها في طريق عودتهما من المدرسة إلى البيت: «الحمد لله أنَّني لم أُخبر أباك، لقد انقلبتُ إلى نملةٍ أمام مديرك..».

تحاول سما أن تبرِّر، لكنَّ أمّها تقاطعها بعصبيَّة: «ما زلتما صغيرتيْن على العشق والكلام الفارغ الذي يجلب العار، يا لخجلتي!»

في صيف ذلك العام، تزوَّجت نغم من أحد أبناء أقاربها مقابل مهرٍ كبير، تحدَّث عنه كلّ المدعوِّين، وانتقلت للعيش معه في الأردن.

سألت سما أمّها في طريق عودتهما من العرس، وأصوات الموسيقى ما زالت تصل إلى مسمعهما: «أمِّي، أليست صغيرةً على الزواج؟»

تقلَّص وجه أمّ سما، رفعت حاجبها: «لم تكن صغيرةً على الحبّ، فلتتزوَّج لأنَّ ذلك سترٌ لها».

ترمي سما بالبطانة المخفيَّة عدَّة حبَّات زرقاء، لتزيِّن بها ورود فستانها الذي تحلم به، ثم تسحب من حقيبتها إبرةً وخيطًا تطرِّز بالحبَّات الزرقاء الباقية طرف حقيبتها.

تتساءل: «هل نجحت نغم، عبر حصٍّ أزرقَ واحد سرقته من أبيها، أن ترمِّم بذكراه معطفَ أمانها بعد أن انسلخت عن أهلها ومدرستها وحبيبها، وانعجنت برداء زوجها!؟»

لماذا لم تقوَ سما إلى الآن على رتق تلك الثقوب، بالرَّغم من كلِّ السرقات؟

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

في داخلي حفرةٌ، كلَّما حاولت ردمها اتَّسعت عمقًا..

أحشائي فارغة من اللكمات الخفيفة التي كانت تخيفني، توتّرني..

بدأت أستفقد هذه اللكمات، أشتاق إليها، أترقَّبها، لكنْ لم تحدث مجدَّدًا.

امرأةٌ فقدت جنينها هي امرأةٌ مهزومة أمام أمومتها.

بعد خروجي من المستوصف المجَّاني المتراكمة عند بابه

كراتين الأدوية المقدَّمة من عدَّة هيئاتٍ وجِهاتٍ إنسانيَّة، إلينا نحن اللاجئين السوريين، لم أرغب بالعودة إلى منزل نكير، فارتضى إقامتي عند أهلي مدَّة أسبوعٍ إلى أن تتحسَّن حالتي الصحِّيَّة.

هكذا عدت إلى خيمة أهلي خاويةَ الأحشاء، أنزف حياتي من بين فخذيَّ.

حالٌ غريبةٌ سيطرت عليَّ في تلك المدَّة بعد هذه التجربة، الصمت أو الخرس بالمعنى الأصحّ.

كان أفضلَ لي ولهم بأن لا أتكلَّم، لو تكلَّمت لخرجت كلماتي سكاكين تستقرّ برقاب كلٍّ منهم.

أصبحتُ أخرج كلّ يوم من أمامهم، بجسدي المتداعي، وبروحي المتداعية أكثر، أعتكف خلف الخيمة.

أمامي مدًى واسع، أحاول الهرب من صُوَر المخيَّم وساكنيه المتكرِّرة أمام ناظريَّ. أغافل عقلي علَّني أنجح بنسيانِ شكل الحياة لدقائق.

في هذا الوقت تحديدًا، من تلك المرحلة الميِّتة من وجودي، رأيت باسل.

ربَّما في هذه اللحظة لم يرني، كان يمشي مسرعًا، سيجارة تشتعل في فمه، وكلتا يديْه مشغولتان بنقل الكراتين إلى الخِيَم حولي.

تقع خيمةُ باسل وأهله على بعد عدَّة خِيَمٍ من خيمة أهلي، بممرٍّ قدمٍ ترابيَّة تصل ما بين الخيمتيْن.

انتقلوا منذ أشهر إلى هذا المخيَّم، لذلك لم أكن قد رأيته من

قبل، أو خلال زياراتي إلى هنا.

في المرَّة الثانية، كنت أرسم أشكالًا وهميَّةً على التراب، عندما اقترب حاملًا كرتونة مؤن، وضعها أرضًا، أضاف إليها أشياءَ كثيرة انتقاها من باقي الكراتين حتى انتخمت، ثم قدَّمها إليَّ. التقت عيناي بعينيْه السوداويْن لأوَّل مرَّة، ثم راح مبتعدًا من دون أن يقول حرفًا.

قد تكون البدايات الصامتة هي الأجمل!

في الأيَّام التالية، بقي يمشي أمامي، يذرع الممرّ الترابيّ التي يفصل خيمته عن خيمة أهلي. من كثرة ما نظر إليَّ خلته سحبني إليه، عجنني به.

خلال الأسبوع الذي مكثتُ به عند أهلي، وبعد ليلةٍ شديدة المطر، طافت معظم الخِيَم بالماء. كجنديٍّ لا يترك أرض معركته، تمسَّك باسل بنا، لم يتركنا إلى أن شفطنا الماء كلّه خارجًا.

قال لي يومها بتلعثم، وكانت أوَّل مرَّة نتكلَّم: «طاف قلبي بكِ».

اكتشفت حينها لماذا ينظر أكثر ممَّا يتكلَّم، لأنَّه متأتئ.

لكنَّني أحببته كما هو، أغرتني عيناه. كان ينظر بشكلٍ رائع، فلم أجد بطريقة كلامه عائقًا لتواصلنا.

ما جعله يتعلَّق بي أكثر، أنِّي عشقت تعبيره البصري، متناسية الكلام وأحرفه المتقطِّعة.

فيما بعد، بدأ يأخذ كلامه معي طريقًا متواصلًا من دون حواجز لفظيَّة؛ لكنَّه كلَّما اقترب منِّي ونظر مطوَّلًا إليَّ، تسرَّبت التأتأة مجدَّدًا إلى لسانه.

«رسمنا، ككلِّ أطفال العالم بيتًا وشجرة، ولم نرسم خيمةً أبدًا».

تفكِّر سما بينما تمرّ بمجموعة أطفالٍ يرسمون على جدارٍ قماشيٍّ لإحدى الخيم، بيوتًا ونجومًا، ووروداً..

راحت تقطع الممرَّات بين الخيم الكثيرة باتِّجاه خيمة عليا، لم تذهب للعمل في الحقل هذا اليوم، ولن تذهب غدًا ولا بعده.

لن تضيِّع وقتها بزراعة البطاطا التي لا ينتج عنها غير فُتات الفُتات. تريد وقتًا، لو يفرّخ الوقت وقتًا، ووقتًا! ليتسنَّى لها أن تؤمِّن المبلغ اللازم من أجل رحيلها من المخيَّم.

تحارب الوقت، ليتها ضوء!

شعاعُ شمسٍ تعامد مع عينيْها، نصبت كفَّها كغطاءٍ يحول بينها وبين النور.

توقَّفت، أسدلت كفَّها تاركةً عينيْها نصف المغمضتيْن تتعامدان مع الشمس.

كأنَّها لامست شيئًا عميقًا في داخل تلافيفها، تفكِّر: «سأحارب لأبقى لونًا في الضوء، فالألوان في العتمة لا وجود لها».

قبل أن تلج خيمةَ عليا، حرَّكت ذراعها اليمنى، تريد أن تتخلَّص من ملاكها الأيمن، من ثقله المتراكم كالطين فوق كتفها.

صراخُ ابن عليا يملأ الخيمة، حرارته مرتفعة. تنقل جدَّته خرقةً مبلولةً بين جبينه وبطنه، وعليا تبكي نادبةً حظّها.

تزوَّجت من ابن عمِّها صغيرةً أيضًا. حَمَلَتْ، لكنَّ زوجها لم يشهد ولادة طفله.

خرج إلى عمله وراء مقود سيَّارة الأجرة التي استأجرها بدوره. وحتى اليوم، لم يصل خبرٌ مؤكَّد إلى أهله وزوجته عنه. تتوارد الأخبار بين فينةٍ وأخرى، أنَّه اعتُقل في أحد سجون النظام، وأحيانًا أخرى، يُسمع خبرُ قتله على أحد الحواجز التابعة لمجموعةٍ مسلَّحة في أطراف الشام.

تولول عليا، كلَّما حدث معها أتفه الأمور، فلم تقدر على مواجهة قدرها: أمٌّ لطفلٍ بلا أب.

حين وصلتا إلى المستوصف، كانت قد هدأت، تحتضن ابنها الذي غفا، منتظرةً دورها.

تجلس سما قربها، يحول بينهما كيس القماش لعليا، محشوٌّ بقنّينة حليب، وحفاضٍ، ومحفظةِ نقود بيضاءَ مقلَّمةٍ كجلد حمار الوحش.

تراقب سما كيس القماش، تكابد إشاحة رغبتها، كابحةً يدها اليمنى على الإتيان بأيِّ فعل.

تنادي الممرِّضةُ عليا.

المال، تلك العصا السحريَّة، عبرها نجلب عوالم عفنة لترقد فينا، أو بها نُزيل تلك العفونة.

الامتحان، ذلك الفخّ الذي تُحيكه الظروف، في كلِّ يومٍ، وفي كلِّ لحظةٍ، يمكن أن نقع فيه، وأن نهوي.

الدفاتر جاهزةٌ متأهِّبةٌ على أكتافنا، والملَكان اللّذان لا ينامان، ماذا يسجِّلان؟

الكيسُ القماشيّ بحضن سما، وصوتُ الطفل بأذنها.

هي بحاجةٍ إلى المال لتهرب من العيش هنا. وهو بحاجةٍ إلى المال ليبقى على قيد الحياة. لا يهمّه أين يكون، المهمّ أن يبقى.

متجاهلةً كلّ ضجيجٍ منبعثٍ من ضميرها، تمتدّ يدها اليمنى بثقل، تفتح محفظةَ النقود تجد فيها خمسة دولارات فقط.

تطبق على ورقة النقود بأصابعها التي تيبَّست كألواح الباطون

في الهواء. تتشتَّت رغبتها، فكيف ستساعدها بضعة دولارات تافهة بالهروب؟

كحمارٍ وحشيٍّ ترفَّع عن فريسةٍ صغيرة، تُعيد الخمسة دولارات إلى المحفظة البيضاء.

بالرَّغم من مال عليا الوسخ الذي تلمُّه بمكنسة شرفها، استحال أن تطاله يدُ سما اليمنى!

لم تُفرغ يدا باسل. حمل الكراتين ذهابًا إلى الجرود، ويحمل في العودة على كتفه جريحًا قد يُسلم روحه في أيَّةِ لحظة، في أيَّةِ خطوة.

يغوص في وحله، يشعر أنَّه لا يمشي، وأنَّ أقدامه ثقيلةٌ لا تعرف كيف تأخذه إلى مكانٍ ينتمي إليه، متيبِّسةٌ كألواح الباطون بالماكينة.

تشابهت قدما باسل مع أصابع سما!

كلاهما يرتكب الخطايا.

أحدهما يسرق بأصابعَ متيبِّسة، والآخر يُقدم على مشارف هاويةٍ ما بقدميْن متيبِّستيْن.

تتجلَّى الظلمة، تُشرق الشمس كاشفةً غطاء الليل الأسود عن

كلِّ ما يحدث في الجحور. كان كلٌّ من الجريحيْن يئنّ في خيمة، من خيم مخيَّم الوطن.

بسرِّيَّةٍ تامَّة، ينظِّم الشاويش إقامتهما. يُحضر الطبيبَ المعتمد ليبدأ بمداواتهما، كما يفعل دائمًا مع سائر الجرحى.

أحد الجريحيْن وُضع في خيمة الشيخ طٰه، بطلبٍ منه. والآخر يستقرّ في خيمة أهل باسل؛ فشرفٌ عظيمٌ لأبي باسل أن يستقبل جريحَ ثورةٍ يؤمن بها.

تمنَّى دائمًا أن يقاتل، لكنَّ أوجاع ظهره حالت دون ذلك. حاول من خلال الشاويش لأكثر من مرَّةٍ إقناعَ باسل بالالتحاق بالقتال، علَّه يشارك بالثورة إن لم يكن بيديْه، فبيديْ ابنه. لكنْ لا جدوى من ذلك.

هكذا، وصل «الجريح» إلى خيمة ورد وباسل.

تُقسم الخيمةُ إلى قسميْن بستارة.

الجريح الذي لم يتمّ أعوامه السبعة عشرة، ممدَّدٌ في قسم الرجال، يهذي من ارتفاع حرارته. الرصاصة التي ثقبت قفصه الصدري كادت أن تودي بحياته، توقَّفت قريبًا من الرئة، مانحةً إيَّاه حياةً جديدة.

بقي الطبيب يزوره بشكلٍ يوميٍّ، وبشكلٍ سرِّيٍّ مرَّةً كلّ ليلة.

في فترة نومه الطويل، صحت ذاكرته على صوت أمّه الذي يرجوه أن لا ينخرط مع أصحاب اللحى، كما كانت تُطلق عليهم.

لم يرضَ أن يشذِّب ذقنه منذ أن نمت. حاولت أمه أن تمنعه

إلى مدرسته، راحت تكرِّر على مسمعه أنَّها ترغب برؤيته مرتديًا ثوب المحامي. لكنَّه كان يجيبها بإصرار: «تريديني أن أصبح محاميًا لأُدافع عن مجرمين؟ ها أنا سأدافع عن المظلومين، بثوب الله!»

غاب عدَّة مرَّات عن البيت. تلفتْ روحُها المنتظرة. حين كان يعود، تصرخ، تشتم، ثم تحتضنه راجيةً متوسِّلةً أن لا يعاود الرحيل إلى ساحات الموت..

ولكنَّه في المرَّة الأخيرة، رحل من دون عودة. مضى على رحيله ما يقارب السنة..

ها هو يرقد الآن في خيمةٍ لأُناس غريبين، يحاول أن يفتح عينيْه لكي يوقف صوت أمّه النائح!

تُخرج ورد الأفرشة وتنثرها في الهواء، ثم تدخل لتُكملَ كنَس أرض الخيمة.

تترك نظَّارتها جانبًا، لترسم عالمها بعينيْها الضعيفتيْن، ثم تُعيدهما مجدَّدًا. في العادة، كانت تخلع نظّارتها حين تملُّ صراخ أبيها، لئلَّا ترى فمه المفتوح على مداه. وعند زيارات جارتهم، لكثرة طلباتها من قهوة، شاي، ماء.. تخلعهما أيضًا لتحوِّلها إلى مجسَّمٍ متداخل الأطراف.

تتمنَّى لو أنّها وُلدت أيضًا بأذنيْن ضعيفتيْن، تخلع عنهما السمَّاعة متى شاءت.

بظهرها المنحني نصف انحناءة، تنظِّف القسم الأكبر من

الخيمة، على مقربةٍ من الجريح.

يفتح عينيْه ليجد، وهو عائدٌ من الموت، مؤخِّرةَ فتاةٍ لم تتكوَّر بعد.

هديَّةَ الحياة التي أرادت أن ترحِّب به من جديد!

تستدير ورد لتكنس الزاوية القريبة من وجهه، فتجفل حين ترى عينيْه مفتوحتيْن. تثبِّت نظَّارتها بشكلٍ محكم، تهرع إلى القسم الأصغر من الخيمة لتُخبر أمّها أنَّه استفاق.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

فرغتُ من طفلي، امتلأتُ بحبّ باسل.

يشبه ماءً تدفَّق فوق أرضٍ قاحلة، فأنبتت وأزهرت.

بتُّ أجد كلّ هذه الخِيَم ندفًا من ثلجٍ أبيض يطلّ من بينها باسل..

حين لا أنتظره، يرسل «ورد» إليَّ، لتخبرني سرًّا، وهي تثبِّت نظَّارتها: «باسل ينتظرك خلف الخيمة».

يتمشَّى دائمًا في الممرِّ الترابيّ، حتى لا يلفت الأنظار. يعبّ

من سيجارته أنفاسًا متلاحقة، يصبّ سواد عينيْه على وجهي الملوَّن بقليلٍ من أحمر الشفاه الذي أمسحه قبل أن ألجَ خيمةَ أهلي.

في إحدى المرَّات، دعاني لأشاركه سيجارته، رمقته بتحدٍّ وعببتُ نَفَسًا، سرعان ما خنقني الدخان.

لمّ عن الأرض نصف السيجارة التي ما زالت تشتعل، ووضعها بين شفتيْه، ليستأنس بمذاق شفتيَّ.

كيف انقلب المخيَّم من جحيمي إلى جنَّتي؟

مضى أوَّل أسبوع، لم أشأ أن أرحل.

رجوت أبي أن يُبقيني عندهم أسبوعًا آخر. فوافق نكير مكرهًا.

في الليلة التي سبقت عودتي إلى منزل نكير، جلستُ مطوَّلًا خلف الخيمة، أجرِّب رؤيته ليلًا.

إنَّ الحبّ في العتمة يُضيء في النفس نورًا يصعب تظليله.

في الصباح، عدت مع نكير. حاول منذ أن أخذنا أولى أنفاسنا في المنزل الاقتراب منِّي. سحبني إلى غرفة النوم. بانت نيرته الزرقاء، لفح نفَسَهُ وجهي. كدت أتقيَّأ؛ خلع بنطاله ثم أنزل سرواله الداخليّ مسرعًا، وارتمى فوقي. صرخت به، دفعته عنِّي، فقد تمرَّد السجين أخيرًا.

بدأ يكيل عليّ بالأسئلة عن سبب امتناعي، ثم غادرني يسبُّ ويلعن.

بقيت وحدي، أتلذَّذ بما حملته معي هذه المرَّة من المخيَّم، عيونٌ سوداء شقَّت في داخلي طرقاتٍ جديدةً تمتلئ بالبيوت المسقوفة بالقرميد، تُمطر عليها الدنيا..

يقطعُ الشاويش خطواتِ سما المتسارعة إلى كرڤانة شروق، ينظر إليها كما تنظر ذكور الحيوانات إلى إناثها في موسم التزاوج.

يكلِّمها، لا تُجيب. بينما تهرب من نظراته التي التحمت بها، تُعرِّيها. ينشغل الشاويش عنها برجلٍ يتشاجر مع شابٍّ متطوِّع في إحدى الجمعيَّات، يصرخ الرجل قائلًا من دون خجل: «نحن عشرة في هذه الخيمة.. أنظر».

يضيف محاولًا ابتزاز الجمعيَّة: «إن لم تؤمِّنوا لي خيمةً أخرى، فإنِّي سأزوِّج ابنتيَّ الصغيرتيْن لأوَّل طارق، ولا تأتوا إلى بابي وقتها تعاتبونني!»

تخبُّ سما سريعًا وتدخل إلى الكرڤانة، تستمرّ بإكمال كلّ ألفاظ السبِّ والشتم على الشاويش وعمِّها، وعلى ذلك الرجل

الحقير الذي يساوم بابنته على خيمة، ليأخذ راحته في الليالي مع زوجاته الثلاث..

لكنَّ أحدًا بالكرڤانة لم يسمعها، فصوت السيشوار يهدر كطائرةٍ تحوم على مقربة متريْن من الأرض.

العروس التي تتزيَّن وتتهيَّأ تبلغ السابعة والعشرين، ابتسامتها العريضة لا تفارقها، بعد أن ظنَّت القطار قد فاتها لشدَّة ما طرقت سمْعَها هذه الجملة، كلّ الفتيات من حولها صغيرات، تزوَّجن وولدن..

الكرڤانة بصغرها محشوَّة بأمِّ العروس، خالتها، عمَّتها، وأخت العريس التي تتدخَّل بكلِّ تفصيل.

وسط هذا الزحام، تمتدّ يد سما اليسرى بخفَّةٍ لتلمّ عن الأرض دبُّوسَ شعرٍ يلتصق على زاويته قلبٌ منزوعٌ لم يبقَ منه إلَّا قالبه النافر المدبَّب.

توجِّه سما بصرها نحو حمَّام الكرڤانة، في آخره خشبةٌ من خشبات الأرضيَّة تُخبِّئ تحتها شروق كلّ ما تجنيه.

تستغلّ سما الأجواء المختلطة وانشغال شروق بالعروس لتدخل الحمَّام، تقرفص أرضًا، تمدّ يدها اليمنى إلى الخشبة، تقبعها، فتجد ثلاثة وثلاثين دولارًا.

على الرَّغم من قلَّة المبلغ، لكنَّ شروق تراكمه، كمن يحفر خندقًا بإبرة، سيُبصر نورًا بآخره يومًا ما، ويتحرَّر من قاع الأرض الرطب، فيتنفَّس.

ترمي المبلغ في بطانة حقيبتها، فيما اعتلتها قشعريرةٌ، فلأوَّل مرَّةٍ يتزامن ثقلُ يدها اليمنى مع خفَّة يدها اليسرى.

بالرَّغم من كلّ الخطايا التي ترتكبها، فهي تصارع لتبقى، بيديْها اللتيْن تشبهان كفَّتَي الميزان المتوازنتيْن، تسرق باليسرى لتعوِّض ما فاتها معنويًّا، وتسرق باليمنى لتؤمِّن ما تحتاجه مادِّيًّا.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

يدا باسل أهالتا أولى حفنات التراب، وشرعتا بحشو الهوَّة التي اتَّسعت في داخلي كي تُطمَر وأرتاح.

أهاتف نكيرًا أستعجله ليقلّني إلى المخيَّم.

كلّ نهار جمعة، ساعة الظهيرة، تهرول أغلبيَّة سكَّان المخيَّم إلى الجامع القريب ليصلُّوا.

نُقيم باسل وأنا صلاتنا بشفاهنا..

كانت جدَّتي تقول: «من تلمس يد رجلٍ آخر، وتدخل عتبة بيت زوجها، زانية!»

فكيف من تحمل بفمها لُعاب ونَفَسَ رجلٍ آخر؟

إنَّما كنت أحمل معي دفئًا يتلقَّفني من اجتياح الجليد في كلِّ أركان روحي.

بقيت على ما أنا عليه شهورًا، أخبِّئ باسل في البطانة المخفيّة في حقيبتي، أهرِّبه خلسةً إلى عالمي في منزل نكير، أفكِّر به كما أشتهي، وأحبّ.

طرْقاتٌ خفيفةٌ على باب المنزل، أحدثتْ تغييرًا في حياتي. على عتبة منزلي امراةٌ طويلةٌ بكامل أناقتها، في الأربعين من العمر، عرَّفتني بنفسها بلكنتها اللبنانيَّة، أنَّها زوج نكير. دخلت مع عاملة منزلها.

عيناها كبركانٍ تتقاذف حِمَمُه في وجهي.

كانت مخيفة بالرّغم من هدوئها المزيَّف، تذكَّرت وصف نكير لها «فزَّاعة عصافير».

مدَّت ورقة بيضاء إلى العاملة لتعطيني إيَّاها.

أهالت نظراتها الشامتة المنتصرة على وجهي كَقِطَعِ حديدٍ صدئ، وقالت: «سوريَّة؟ 10 $ سعرك، ما ضرورة الزواج؟!»

كانت شتائمها تزيد ثقوبي اتِّساعًا ووجعًا.

لم أجرؤ، ولا أعلم لماذا لم أقل لها إنَّني كنت لأرفض بأن أُحشر في قبر نكيرك، لو رجع القرار لي...

«عيشةٌ مبتورةٌ في الوطن، أهون من عيشةٍ كاملةٍ مُذلَّةٍ تحت سقف هذه الخيمة».

تُبرطم أمّ سما، مُتفقِّدةً كلّ ما ينقص من أغراض على رفَّيْن معلَّقيْن في زاويةٍ صغيرة من الخيمة، يجب شراؤها اليوم، لأنَّه تمَّت تعبئة البطاقة الحمراء. بطاقة تموينيَّة إلكترونيَّة كُتب عليها «المساعدات الإنسانيَّة في لبنان».

يتمّ تعبئتها شهريًّا من قبل برنامج الأغذية العالميّ التابع للأمم المتَّحدة، بمبلغ 27 $ للفرد الواحد.

تسجِّل أمّ سما قائمةً طويلة بما تحتاجه هي وأولادها الأربعة، ثم تقصي من هذه القائمة ما ليس ضروريًّا جدًّا.

الأفضل أن لا تتخطَّى فاتورتها الـ 135 $، وهو المبلغ الذي تحصل عليه عائلةُ سما المكوَّنة من سما وإخوتها الثلاثة،

بالإضافة إلى أمّها وأبيها الذي لم يُشطب اسمه بعد.

بعد مضيّ أسبوعيْن على وفاة والد سما، تؤجِّل حزنها لتدبِّر طريقةً تُنقذ بها حياتها.

تأخذ البطاقةَ من أمِّها، تقوم بتولِّي أولى مهامّ أبيها، تحشر اللائحة في جوف حقيبتها، تربط حجابها، ثم تهيم على وجهها قاطعةً مخيَّم الوطن.

تتحاشى أن تمرّ أمام خيمة عمّها الكبير، أو أن تسلك طرقاتٍ قد يتواجد بها الشاويش، لاستطلاع أمر الماء، أو بالساحة حيث يتجمَّع العمَّال والأطفال ينتظرون منه أن ينظِّم يومهم...

تمشي ما يقارب النصف ساعة لتصل إلى أقرب صرَّافٍ آليّ، تجد أمامه خطًّا طويلًا كحبلٍ غير مشدود. منهم من لا يبالي بكلِّ ما حدث ويحدث، يقف منتصبًا، مصحصحًا، ما يهمّه فقط هو تلمُّس النقود. ومنهم من يملّ الوقوف، يتراخى، ينكِّس عينيْه أرضًا، يمرِّر نظرةً خاطفة على طول الصفِّ ليحتسب الوقت المتبقِّي له.

تُلقي سما نظرةً إلى الطريق الممتلئة بالسيَّارات والمارَّة اللبنانيِّين، إذ تجدهم يتفحَّصون الحبل غير المشدود، يزمُّونه بتلك النظرات الساخرة، ويفردونه بالأخرى المشفقة.

«السماء لم تُهدنا شيئًا، سوى الحرب، والفقر، والتشرُّد..».

تفكّر سما بجدَّتها، تتذكَّر أباها حين قال لها قبل أن يموت: «تُرى عن أيَّة سماءٍ تحدَّثت جدَّتكِ بالرّغم من تجاعيدها؟»

سماء جدَّتها وطنهم القديم، حيث السكون المغلَّف بالسكوت والرضوخ.

أمَّا سماؤهم اليوم، فهي صرَّافٌ آليٌّ يكبّ في وجههم أموال أمم اتَّحدت!

على من؟ وعلى ماذا؟ المهمّ أنَّها اتَّحدت، فأطعمتهم.

عُبَّئت كلّ هذه الآلات بأوراقٍ خضراء تُعيد اللون الزهريّ إلى الوجوه المصفرَّة جوعًا وبردًا وقهرًا. فالجوع كافرٌ والجيَّاع مؤمنون.

سحبت الـ 135 $، دفنتهم سريعًا بالبطانة المخفيَّة، هرولت مبتعدةً عن الحشود التي تسمَّرت جلُّ أحلامها بما يقذفه فاهٌ آليٌّ قرب خِيَمهم.

«نستقبل بطاقات اللاجئين السوريِّين»: لافتة كرتونيَّة معلَّقة على زجاج واجهة السوبر ماركت.

يتحدَّث مالك السوبر ماركت مع موزِّعٍ تابع لإحدى شركات التغذية:

«أقسم أنَّني منذ بدأت أستقبل بطاقات اللاجئين تدَوْبل ربحي، أحضرت عمَّالًا إضافيِّين، وسأبدأ خلال أيَّامٍ ببناء طابق ثانٍ للمحلّ».

ثم يرفع سبّابته نحو السماء مردفًا: «الحمد لله.. هو العاطي الكريم».

يردّ عليه الموزِّع: «مصائب قومٍ.. عند قومٍ فوائد».

تمشي سما بين الرفوف، تسحب الأغراض التي دُوِّنت أسماؤها في اللائحة، ثم تضعها في العربة.

لكنَّ نفسها المشتهيةَ تلمّ بثقلٍ عبر يدها اليمنى المزيدَ على غفلة من الناس: الشوكولا، والبسكويت.. وتحشو بهم حقيبتها الصوفيَّة.

تنتظر دورها لتحاسب، تراقب محتويات العربات التي تتقدَّمها.

لا يوجد إلَّا سمن، حلاوة، سكَّر، زيت، عدس، حمّص، علب معكرونة وشاي...

عربات متشابهة بمحتوياتها حدّ الدهشة.

مؤلمٌ أن تتشابه أذواق الناس في بعض الأوقات، تشابهًا تفرضه الحروب والمجاعات.

انتبهتْ سما لكثرة الأشخاص الذين يرهنون بطاقاتهم في السوبر ماركت مقابل أغراض بقيمةٍ تفوق المبلغ الشهريّ، أو مقابل مبلغٍ من المال.

تاركين بطاقتهم لدى مالك السوبر ماركت ليستردّ هو ماله ما إن تُزوَّد البطاقة مجدَّدًا بالشهر القادم.

إلى حين وصول دورها، انطلقت تستقي من ذاكرتها قصَّةَ أوَّل ورقة نقودٍ حصلت عليها، ذات صيف، إذ لم تكن قد أكملت عامها السادس.

يومها، فتح خالُها المغترب كفَّها الصغيرة واضعًا ورقةً نقديَّةً من فئة الخمسة والعشرين ليرة سوريَّة، أي ما يقارب حينها، قبل

الحرب، نصف دولار. كانت تلك الورقة النقديَّة أوَّلَ مبلغٍ تملكه.

راقبت سما مرارًا دجاجةَ الجيران تجلس فوق بيضها تخبِّئه، وتدفِّئه إلى أن يفقِّس صيصانًا صغيرة. اعتقدت بإمكانها زيادة هذا المبلغ، إن وضعت ورقة الخمس والعشرين ليرة في بطانة حقيبتها الصوفيَّة، تتدفَّأ فتُفرّخ..

ثم ما ملَّت تسأل أمَّها بشكلٍ يوميّ إن كانت قد زادت. تردّ أمّها ضاحكةً في كلِّ مرَّة: «المال لا يتكاثر، مع أنِّي أتمنَّى ذلك».

العذاب الأقسى لها حين تمرّ سيَّارة البوظة، فيتجمهر الأولاد والكبار حولها، لشراء المثلَّجات التي تُسكب بجوفهم فتنعشها.

تتلمَّس سما الورقةَ المبتلّةَ عرقًا من كثرة ما فركتها بأصابعها، تقرِّر أخيرًا أن تركض إلى السيَّارة لشراء أكبر علبة من المثلَّجات.. لكنَّها سرعان ما تتراجع معزِّية نفسها أنَّها إن اشترت اليوم فلن يكون بالغد معها أيَّةُ ورقةٍ تشعرها أنَّها تستطيع ساعة تشاء الحصول على المثلَّجات..

شارف ذلك الصيف أن يمضي، لم تشترِ بورقتها أيَّ شيء.

كانت تفكِّر بأنَّها إذا اشترت بها اليوم، لن يبقى لديها فرصة لتشتري في اليوم التالي.

صرخت حين رأت أمّها قد رمت بكلِّ الثياب في وعاء ماءٍ

كبير تطوف على سطحه حقيبتها الصوفيَّة. انتشلت الحقيبة باحثةٍ في بطانتها عن ثروتها.

استخرجتها مبلولةً إلى حدّ الاهتراء، وبحركةٍ متهوِّرةٍ أدَّت إلى شقِّها نصفيْن. اكتشفت معنى الفقد المادِّيّ لأوَّل مرَّة!

امتدَّت يدها اليمنى لأوَّل مرَّة إلى صندوق نقود أبيها المُعلَّق في بطن ماكينة الخياطة، يخبِّئ به محصوله اليوميّ، رغبت بشدَّةٍ أن تعوِّض خسارتها، فنشلت ورقةً نقديَّةً من فئة الخمسة وعشرين ليرة سوريَّة، ضميرها البريء وقتها لم يطاوعها بأخذ مبلغٍ أكبر.

ركضت بها نحو الحيّ، منتظرةً سيَّارة البوظة، اشترت علبة بنكهاتٍ متعدِّدة. استلذَّت بها كأنَّها حقَّقت أحلامها الكبيرة.

تعلَّمت أنَّ النقود إن وُجدت يجب أن تُصرف، وإلَّا ستهرب.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

أتيتُ إلى خيمة أهلي، لكنْ من دون عودة إلى منزل نكير هذه المرَّة.

أخرجتُ من حقيبتي الصوفيَّة ورقةً بيضاء سلَّمتها لأبي.

عادت لي بعد مدَّةٍ أمنياتُ الفتيات، أن ألبس فستانًا أبيض لباسل. فستانًا أُحيكه كما أحبّ، بتاجٍ من ورودٍ ملوَّنة.

عمِّي الكبير، قال لأبي: «الشاويش طلب يدها. فلنزوِّجها فور انتهاء عدَّتها!»

رفض أبي، ووعدني أنَّه لن يزوِّجني مرَّةً أخرى.

يحاصره عمِّي دائمًا بالجملة نفسها: «أيعجبك بقاء ابنتك مطلَّقة؟»

تبخَّرت أمنيتي، لن أتمكَّن من الزواج من باسل وشاويش المخيَّم قد أشار إليَّ بإصبعه ذات الظِفر الطويل.

حاول باسل إقناعي بأن نرحل من هذا المخيَّم إلى آخَر، ونتزوَّج بعيدًا من الشاويش وأهلي وأهله الذين، هم أيضًا، لم يتقبّلوا فكرة أن يرتبط ابنهم بامرأةٍ مطلَّقةٍ مرَّتيْن.

كنت أرغب بأن أعيش الحبّ ككلِّ الفتيات في العالم، ثم أتزوَّج.

عاد حلمي الوحيد ينقر جدارَ زجاجٍ شاهق بين نفسي والحياة، ينقر بهدوء، ثم يعلو ضجيجه. شيءٌ ما في داخلي يهتف: «ستصبحين مصمِّمة فساتين بيضاء».

تلج المخيَّم، تحمل الأكياسَ بيديْها، وفي رأسها تنمو فكرةٌ واحدة كشيطانةٍ واحدة. ترقص في واحاتٍ وحلية، وتلطِّخ كلّ ما وُجد قربها.

ينغمس نعلها في بقعة وحلٍ عند مدخل المخيَّم، فتكاد تنزلق.

تسحب قدمها، تمرِّر نعلها على ترابٍ ناشفٍ بحركاتٍ سريعة متتالية، لتزيل كتلة الوحل العالقة أسفل نعلها، تتمايل من ثقلها.

تختطف يد عمّها الكبير بعضًا من الأكياس المعلَّقة بأصابعها.

يقول لها ضاحكًا: «عمّك لديه قدمٌ واحدة لكنَّها قويَّة، كأنَّها ثلاثة أقدام».

يدلفا بعمق المخيَّم، يتأبَّط عكَّازه، وتتأبَّط سما صمتها. تسير خلفه بعدَّة خطوات.

تكبّ بصرها عليه بإشفاق، فمع كلّ خطوةٍ يتقدَّمها، تقفز الأكياس وترتطم بعكّاز قدمه المبتورة.

ما إن اقتربا من الخيمة، تأخذ منه الأكياس من دون أن تنظر إلى عينيْه. خجلت من لهفته وانكبابه على مساعدتها. لم تقوَ على كبح شعورٍ راودها، أنَّها لا تكرهه.

ثم فكَّرت متسائلةً: «هل كُرْهه واجبٌ عليّ؟!»

يناديها بنبرةٍ صادقة: «إنَّني بمثابة أبيكِ الآن».

هل يمكن أن يكون حقًّا مثل أبيها؟ ألن يعود إلى إجبارها على الزواج من الشاويش؟!

يقاطع أفكارها: «حين تتزوَّجين من الشاويش سترتاحين يا ابنتي».

ترمي الأكياس في زاوية الخيمة تحت الرفَّيْن المعلَّقيْن، تلتقط أمّها أكياس الأرزّ والعدس، تصفّها، ثم تضع أمامها علب الحمُّص بالطحينة والفول. تعطي سما لأمّها 6 $ المتبقِّية.

تُدفِّئ أمّها صدرها بالـ 6 $ قائلةً بنفسٍ شرهة: «يجب أن نحصل أيضًا، من الشاويش، على حصَّةٍ أكبر من المؤونات».

ثم تستدرك: «نحن أحقّ من غيرنا الذين يستلمون بدل الحصَّة اثنتيْن!»

بقيت البطاقة ملفوفةً بقطعةِ قماشٍ بالية تستقرّ بالبطانةِ المخفيَّة في الحقيبة.

مؤخّرة ورد التي لم تتكوَّر بعدُ كفايةً لتبدو مثيرة، علِقتْ

كالرصاصةِ في رأس الجريح.

لا أحد يمكنه سحبها، إلَّا إذا لمسها كما صوَّرتْ له غريزته الملتهبة بجسده الممدَّد في فراشٍ تحت سقف خيمةٍ آوته.

تخطف ورد خطواتها سريعًا، حين تمرّ من الغرفة الداخليَّة للخيمة إلى الغرفة الكبيرة حيث ينام الجريح، يُربكها الخجل من نظراته فتفرّ خارجًا.

يتحيَّن فرصةَ خلوِّ الخيمة من باسل وأبيه، ثم يترقَّب انشغال أمّها عند إحدى الجارات، يمسِّد لحيته التي طالت كثيرًا، وينادي ورد بحجَّة تلبية طلباته العديدة: ماء، أو قطعة خبز ليتناول دواءه..

يتقصَّد أن يلمس يدها حين تناوله ما طلب، فيخفق قلبها كخلَّاطٍ كهربائيّ. تعرق، فتخلع نظَّارتها لتهدأ ثم تُعيدها، فيُعيدها بصرُها إلى عالمها الذي نبت به الجريح على حين غفلة...

يريد أكثر من ماء، أو قطعة خبز أو دواء. إنَّ رغبته تتَّقد يومًا بعد يوم.

لم يكن هناك في حياة ورد رجلٌ غريبٌ قريبٌ منها إلى هذه الدرجة تحت سقفٍ واحد وطيلة الوقت.

تشعر أنَّها صبيَّةٌ ككلِّ الصبايا اللواتي خبرن الحبّ، يروين لها عن قصصهنَّ، بما فيها كلمات الغزل الوافدة إلى آذانهنَّ من الشباب، اللمسات الخفيَّة المارقة فوق أيديهنَّ، واللقاءات السرِّيَّة

السريعة بكلِّ ما فيها من شغفٍ وإثارةٍ ومغامرة، تشكِّل مادَّةً دسمة لجلساتهنَّ وثرثراتهنَّ.

تمنَّت أن تعيش كلّ هذه الأشياء، وتساءلت بسرِّها: «هل يحبّني؟»

منذ بدأت نظراتُه تزحف إليها، أحبَّت عالمها الواضح. وتخلَّت عن لعبة الرؤية المغبَّشة.

بينها وبين الجريح قطعةُ قماشٍ كالستارة، تفصلهما ليلًا.

هي، ببراءتها تستذكر كلَّ ما حدث بينهما طيلة النهار، كيف نظر إليها، وكيف كلَّمها، وتلك اللمسة على بشرتها التي مرَّت خاطفةً كالشُّهب في السماء. تجد نفسها قد غرقت بأحلامها الورديّة، وغفت.

هو، بغريزته المتأهِّبة كمقاتلٍ وسط معركةٍ محتدمة، تراوده خيالاتٌ، أن يشقّ الستارة إلى جزأيْن، لتتسلَّل من بينهما ورد إليه، فتنام فوقه، يعجن مؤخّرتها بكلِّ قوَّته.. ينتصب شيئه، فيمضي ليله كلّه بالاستغفار.

قبل أيَّام من مغادرته إلى الجرود، في وقت الظهيرة، استغلَّ عدم وجود أحدٍ في الخيمة، ينادي عليها، يبحث عنها، لكنَّه أيضًا لم يجدها.

بعد قليلٍ، ولجت ورد إلى الخيمة، تحمل بين يديْها صحنًا ممتلئًا بالفاصولياء الساخنة.

يلحق بها إلى الغرفة الداخليَّة، تستعجل بإيجاد فسحةٍ لتضع

الصحن على طرف طاولةٍ صغيرة. يقترب منها يجرّ خطواتِهِ على مَهَل مراعيًا جرحه، يمسك بها من الخلف ويلزق عضوه المنتصب بمؤخّرتها.

تجفل، تحاول أن تتشبَّث بطرف الطاولة، لكنّ كفَّها غطست بين حبَّات الفاصوليا، فلسعت جلدها.

تنحشر في زاوية الخيمة، ترتجف كعصفورٍ امتدَّت يدٌ غريبةٌ إلى عمق قفصه. بدأت تصرخ، فابتعد عنها.

أكل الذنب الجريح، كما يأكل الذئب الخراف، لليلتيْن كاملتيْن لم ينم.

كيف استطاع أن يرتكب تلك الخطيئة؟!

توضَّأ، وأقام صلاةً تندرج تحت باب التوبة، وراح يحاسب نفسه، ويتوسَّل ربّه أن يغفر له.

حاول أن يعتذر من ورد، لكنَّه لم يلمحها منذ تلك الظهيرة. ارتعب من فكرة أن تُخبر أمّها بما حصل، عندها سيُقطِّع في الخيمة التي خبَّأته وآوته، بينما بَالَ وسطها.

قبل موعد رحيله إلى الجرود ببضعة أيَّام، تحدَّث إلى الشيخ طٰه قائلًا بصوتٍ خجول: «شيخي أريد طلب يد ورد للزواج، على سُنَّة الله ورسوله».

جميعنا يرتكبُ الخطايا، باليد اليمنى أو اليسرى لا فرق.

فكلّ الخطايا محفوظةٌ، ما دام الملكان اللذان يقفان من دون تعب على الأكتاف، يسجِّلان كلّ خطوة.

ربَّما لهما عقولٌ من نور، تغفل، فلا تسجِّل.

أو لهما قلوبٌ من طين، تظلم، فتسجِّل.

سما تؤمن أنَّ ملك كتفها الأيسر يملك عقلًا من نورٍ لا يسجِّل ضدَّها أيّ شيء.

فتتجرَّأ يدها اليسرى، بأصابعها الخفيفة أن ترتكب خطيئة.

لكنَّها إن اضطرَّت إلى استعمال يدها اليمنى فلن تتخاذل، بالرَّغم من ملك كتفها الأيمن الذي يسجِّل كلّ شيء بخبثِ الطين وثقله.

أمَّا باسل الذي حمل، صعودًا إلى الجرود بكلتا يديْه، الكراتين الممتلئة بالمؤن من أجل أن يغذِّي مقاتلين فتكوا بالوطن.

ونزولًا، حمل بكلتا يديْه، جريحًا مدَّده بخيمته، فبال الأخير وسطها.

ماذا سجَّل ملكاه؟

جميعنا يرتكب الخطايا، يُضيِّع بين خطوط كفّه سماءه، التي يمكن أن تهديه هديَّةً أو هداية، في لحظةٍ عبثيَّة.

سجَّل الملكان أو تجاهلا، غير مهمّ. فالسماء إن ضاعت لمرَّةٍ واحدة فإنَّها لن تعود لتهدي مجدَّدًا!

الفكرةُ الشيطانيَّة التي ترقص في واحات الوحل داخل رأس سما، قفزت عاليًا وارتطمت، ثم هوت.

كانت قفزتها الأخيرة!

تسحب من حقيبتها الصوفيَّة البطاقة التموينة الحمراء، تُعطيها لصاحب السوبر ماركت. يمدّ لها ورقةً بيضاء، تسجِّل عليها الرقمَ السرِّي للبطاقة، ليستطيع سحب المال منها كلّ شهر.

يسألها: «كم شهر تريدين أن ترهنيها؟»

انكمشت للحظة، ثم أجابته متردِّدة: «أربعة أشهر، خمسة أشهر».

أردفت بطريقةٍ عجولة، مخافةَ أن تغيِّر رأيها: «أربعة أشهر يكفي».

رهنُها لأربعةِ أشهر سيهبها مبلغ 540 $، تضيفه إلى

الـ 900$، ثمن الذهب الذي باعته، وإلى الخمسين ألف ليرة ـ ما يقارب 30 $ التي سرقتها من شروق، مع 20 $ كسبتهم من تأجير فستان عرسها، فيتجمَّع مبلغ 1490 $.

رهنُها لأربعة أشهر لن يسمح لإخوتها وأمّها استعمال البطاقة ليأكلوا.

طمرت الـ 540$ في البطانة المخفيَّة.

سحبت يدها اليمنى من بطن حقيبتها، لتضيف اسم أمّها على الورقة البيضاء كمن يوصي وصيَّته الأخيرة، تقول لصاحب السوبر ماركت: «هي من ستأخذ البطاقة منك لاحقًا».

إلى حين أن يُشطب اسم أبيها، وتتوقَّف حصَّته، تكون هي في مكانٍ بعيدٍ من هنا.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

«ما هي أحلامكنّ؟»

في أوَّل يوم من هذا المشروع، سُئِلَتْ الفتياتِ هذا السؤال.

في تلك اللحظة، أردتُ أن أقول للمشرفة على المشروع: «إن كنتِ لن تحقِّقي أحلامنا فلماذا تسألينا عنها، لماذا توقظينها؟»

لكنَّني لم أقل..

كنت وقتها كالخارج من مقبرةٍ دَفَن بها لتوِّه أشياءً كثيرةً أحبّها.

اليوم وقد تخلَّصت من منكر ونكير، أستطيع انتشال حلمي من تحت أنقاضي، لأبثَّ فيه من روحي الجديدة.

بالرَّغم من صعوبة الظروف التي نحياها في المخيَّم، ومن مرارةٍ تذوَّقتها في زواجيْن سابقيْن، إلَّا أنَّني ما زلت أريد أن أصبح «مصمِّمة فساتين».

حصرت تخصُّصي بفساتين الأعراس البيضاء. فساتين واسعةٍ برَّاقة، لها عدَّة طبقات من القماش الجميل الهادل، كأثواب الملكات.

ثم بعد ذلك، غصت بحلمي أكثر، وقرَّرت أن يكون أوَّل فستانٍ أصمِّمه فستاني. بلونٍ أبيضٍ وورودٍ صغيرةٍ ملوَّنة تُرصِّع تاجًا من قماش، كنت قد بدأت بحياكته منذ أن أحببت باسل.

تمنَّيت لو أخطو خطوةً واحدة في بلاد الموضة، بلاد الفساتين الجميلة. أخبرني أبي يومًا حين كنت أتفرَّج بِنَهَم على فساتين صُوِّرت بمجلَّة قديمة بدكَّان خياطته، أنَّ أجمل الأزياء وُجدت في إيطاليا.

أحلم أن أسافر إلى تلك البلاد، أن أخيط فساتيني هناك، ثم تلبسه فتياتٌ طويلاتٌ نحيفات، يُصوَّرن ثم تنتشر صورهنَّ في كلّ العالم..

منذ وصولنا إلى لبنان، لم ألتحق بمدرسة البلدة، لكنِّي بقيت أُصرّ على الالتحاق بأيَّة دورةٍ لتعليم وإتقان الخياطة وفنِّ التطريز.

وذلك إيمانًا بقدرتي على خلق شيءٍ جميل من قصاصاتِ أقمشةٍ لا نفع لها.

حين كنت في العاشرة، طلبت من أبي أن يعلِّمني كيف أخيط فستانًا للعبتي.

أعطاني قطعةً من القماش صغيرةً، وأجلسني خلف الماكينة. أرخى قدمي لتطأ الدولاب، وأمسَك بأصابعي ساحبًا طرف القماش فتشكَّل خيطٌ طويل.

شعلةٌ صغيرةٌ من نار التهبت بصدري لحظتها. أيقنت أنَّها لن تخبت إلَّا إذا عاودت الكرَّة، وهذه المرَّة وحدي.

فعلتُها عدَّة مرَّات، أمرِّر القماش تحت الإبرة محدثةً عدَّة أثلام من الخيوط.

اليوم، أرغب في أن أُكمل ما بدأته، أن أحوِّل كلّ تفصيلٍ يمرّ في خيالي إلى فستانٍ أبيض يحمل السعادةَ لمن ترتديه.

هذا حلمي.. قد يكون جيِّدًا أن يُفشى.

الشياطين لا تموت. أفكارها مهما قفزت وهوت، لا تنتهي!

الفكرةُ الشيطانيَّة نفسُها برأس سما، رقصتْ برأس باسل أثناء عرض الشيخ طٰه زواج الجريح من ورد.

فرح أبو ورد، وقال للشيخ طٰه مفتخرًا: «فلنعقُد على بركة الله».

لم ينوِ طلب مهرٍ عالٍ لابنته، نظرًا لما يكنُّه من تقديسٍ لنهج الجريح.

«ألف دولار»، قال باسل لأبيه.

أضاف بنبرةٍ جعلها ثابتةً بعيدةً عن التأتأة: «لا تنسَ أنَّ أختي بحاجةٍ لعمليَّةٍ لعينيْها. ماذا لو كان هذا المهر هو الكلفة المتبقِّية علينا للعمليَّة التي ستتكلَّف الأمم المتَّحدة بالمبلغ الباقي لها؟»

صفن أبوه متأمِّلًا في ورد التي تخلع نظَّارتها، تنتظر مصيرَ زواجها الأعمى.

تلعثم الجريحُ في البداية. فهذا مبلغٌ كبير لن يستطيع تأمينه في فترةٍ قصيرة. لكنَّ نظرات باسل المحرجة جعلته يوافق، مخافةَ أن يشكّ بأمره، وبنِيَّة طلبه.

فاستدان من الشاويش المبلغ، ليردّه له حالما يعاود عمله في القتال.

بينما ينقل باسل خطواتِه بشرودٍ ثقيل، مُتَّخذًا طريق الجامع مع أبيه، فكَّر بخفَّة: «الفضيلة الكبرى أن تكون معصومًا عن الصواب، أن تقترف الخطيئةَ عن قصد، ومن دون ندم».

حين وصل، خلع حذاءه عند العتبة، وانتعل برأسه فكرته، ودخل ليصلِّي..

في مساء اليوم الذي سيغادر فيه «الجريح» المخيَّم، يعقد الشيخ طٰه قرانه على ورد، يسألها: «قولي لي يا ابنتي، أنتَ وكيلي».

شابَ وجهَ ورد مرارةٌ، ولم تُجب.

لم تكن تريد، ولم تجرؤ على إخبار أحدٍ بما فعله معها، فالذي سيصبح زوجها بعد قليل، إن قالت «نعم» أو لم تقل، قد تحرَّش بها!

ورد لا تعرف كلمةَ «تحرُّش»، إنَّما قد وصلها شعورٌ قبيحٌ من الجريح، وأصبحت تخاف منه.

تفكِّر بطريقةٍ طفوليَّة كيف تطوَّر الأمر هكذا بسرعة، كيف تخطَّت كلّ تلك المراحل المشوّقة التي لم تعش منها شيئًا؟ ستُزوَّج بعد قليل، ستُرحَّل بعيدًا عن أهلها!

تُفكِّر إن خلعت نظَّارتها قبل أن يستلم الجريحُ تلك الورقة المتفشِّي عليها كالزيت ختمُ شيخ، هل ينتهي هذا الأمر؟ هل تُرَدُّ هذه الورطة عنها؟

يردّ أبوها مكلِّمًا الشيخ طٰه: «أنا وكيلها، إعقد يا شيخ، مَن أفضل من المقاتل لابنتي؟!».

ألف دولار. هل كفَّر الجريح عن خطيئته بهذا المبلغ؟ وهل غفر ربُّه ذنبه؟

هل قتل الجريحُ الذئب؟

ألف دولار، مبلغٌ حوَّل رغبته تجاه ورد من حرامٍ إلى حلال. من اليوم أصبحت مؤخّرة ورد بيده، من دون أن يستغفر ربّه كلَّما اشتهاها.

سما وباسل يقفان على مبعدةٍ من الكرفانة، يغوصان مع شياطينهما في كلِّ ذلك الوحل. ربَّما تتكوَّن القسوةُ من تراكم اللين!

يُخرج من جيبه مستحقَّاته عن عمله في الورشة 200$، بالإضافة إلى المبلغ الأهمّ، مهر ورد الذي تسلَّمه عوضًا عن أبيه، ليحتفظ به ريثما تعود ورد إليهم، ويحدِّد موعد العمليَّة وفق ما أقنع أباه.

تطال سما من بطانة حقيبتها الجورب المثقوب تحشو فيه مبلغ المال الذي أمَّنته. سُحبت معه أيضًا بضعة ورودٍ صغيرةٍ مطرَّزةٍ بخرزٍ ملوَّن، ودبُّوس شعرٍ بقالب فارغٍ نافر، وقصاصة ورقٍ تحتفظ بها منذ عدَّة شهور، سبق وأن مزَّقتها من جريدةٍ حُشرت بين علب المؤن بكرتونة الإعاشات، تناولها باسل بخفَّة:

«ليس لي إلَّاكِ تنزع حولي ألوانًا، تغمض عينيَّ عن سوادي..»

سحبْتها سما من يده، وأعادت دسَّها بالبطانة، ثم وضعت براحته المال ليُضاف إلى ما يملك.

يصنعان شمسًا من شعاع يصلهما عبر خُرْم بابٍ كبير موصد..

2690 $، هي كالسَّيْل المتدفِّق الذي سيُزيل كلّ الوحول المترسِّبة حولهما، كالسَّيْل المتدفِّق الذي أغرق من حولهما.

ورد، عروس كرڤانة شروق لهذه الليلة.

ألبسوها فستانَ عرس سما المعلَّق الذي تخلَّصت من ثقله أخيرًا..

تُزجّ ورد بين أكمامه الطويلة الآن، كسردابٍ له بابٌ للدخول وليس له بابٌ للخروج.

تُسارع شروق في إتمام زينة وجهها بمزاجٍ جيِّد، فقد استلمت اليوم أخيرًا ورقة طلاقها.

تنظر ورد إلى نفسها في المرآة المثبَّتة أمامها، نظَّارتها على

المنضدة قربها، لا ترى شيئًا، إلَّا غباشًا واضحًا أكثر من أيَّة مرَّة، مترافقًا مع زغاريد جارتها، التي لا تستلطفها.

أمّها تحدِّثها سريعًا عمَّا ينتظرها الليلة، فلقد كبرت فجأة.

كلّ هذه المعلومات التي كانت ممنوعةً على مسمعها قبل يوم واحد، وتُقال أمامها بسرِّيَّة، وبغمزٍ بين النساء الآن، بعد أن ملأَ الشيخ طٰه تلك الورقة بكلماتٍ وآيات، أصبح واجبًا عليها أن تسمعها وتنفِّذها لتكون مرضيةً لزوجها، الذي سيمسك بيدها بعد قليل، ويقودها إلى الجرود.

لم يقوَ الليلُ القاتم بكلِّ سواده على إخفاء البياض الصارخ من الفستان الذي يلبس ورد.

يذهبون باتِّجاه الجرود، الشيخ طٰه وورد، يتبعهما الجريح المستند على كتف باسل.

تتعثَّر ورد في كلِّ خطوة، ترفع فستانها. تخطو أوَّلَ خطوةٍ، والثانية، في الثالثة تتعثَّر من جديد.

يقترب منها باسل، فيجدها قد خلعت نظَّارتها.

تهمسُ له بصوتٍ مرتجف: «إنَّني خائفة.. أخي، هل تُعيدني إلى خيمتنا؟!»

أيَّة شياطين تلك التي تراقصت في رأسه؟ والملَكان اللذان لا يهدآن، هل سجَّلا كلّ شيء؟

يمشي باسل بمحاذاة الشيخ طٰه، يحاول أن يستلّ منه شهادةَ براءةٍ من كلّ ما اقترفته يداه.

يسأله بصوتٍ فيه من التوتُّر ما جعل كلامه يخرج متقطِّعًا إلى حدٍّ كبير: «هل أخطأنا بأن زوَّجنا أختي صغيرةً؟»

يربِّت الشيخ على كتفه وهما يكملان الطريق، يقول: «كيف تخطئ في أمرٍ قد حلَّله ربّك؟»

يُلقي نظرةً على ورد التي تسير بالقرب من زوجها، فيراها ما زالت على حالها، لم تضع نظَّارتها بعد، وتتعثَّر في كلِّ حركة.

عاد واقترب منها، قال لها بصوتٍ خفيض: «أختي، ضعي نظّارتك لكي تري طريقك».

ترفع فستانها الأبيض الممتلئ بالخرز الفضِّيّ اللاّمع، وتمشي نحو عالمٍ لا تراه، لكنَّها ستعيشه.

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

أرفع بكلتا يديّ فستاني الأبيض الممتلئ بالخرز الفضِّي اللَّامع، وأقطع طريقًا أراها بوضوح، نحو خيمة منكر؛ زوجي الأوَّل.

تمشي أمِّي قربي، تغنِّي الأغاني القديمة التي تُزّف بها العروس، تتوقَّف وتضحك متلفِّتةً، قائلةً للموجودين معنا: «حلمتُ أنَّ سما تلتفّ بقماشٍ أبيض.. الحمد لله ها قد تحقَّقت الرؤية».

أفكِّر بحسرة: «كيف اشترت لي أمِّي كفني؟»

بمهرٍ أقلّ من 100 $، بالكاد كان يكفي لشراء فساتين نومٍ برّاقة وعارية.

جهَّزتني أمّي: اشترت فستانَ عرسي، كفني الأبيض، أزالت كلّ الشعر النابت على جسدي، عطَّرتني، زيَّنتني، ثم أرسلتني إلى فراش رجلٍ يدَّعي أحقِّيَّته بي، يبرز ورقةً بيضاء تفشَّى عليها ختم شيخٍ كالزيت..

كما تفشّى دم ليلتي الأولى على ذلك الشرشف الأبيض!

في زاوية الخيمة الضيِّقة التي تفصلنا بستارةٍ عن بقيَّة خيمة أهله، قضينا ليلتنا الأولى. وعلى مقربةٍ من خيمة أهلي، تجرَّدتُ من ثيابي ومن معطف الأمان لأوَّل مرَّة.

منكر الموت الزّاحف فوقي، عرّاني، نخر بشيئه جسدي كوتد خيمتنا يومَ نُخرَ بهذه الأرض الغريبة الموحشة.

بعد أن أتمّ مهمَّته وسلَّم أمّه صكّ رجولته، الذي هو نفسه صكّ تجريدي من كينونتي، عاد إلى الجحر المصغَّر، قال لي جملةً واحدة وهو يمدّ يده متحسِّسًا بعض أعضائي: «سنُعيد هذا الأمر كلّ يوم».

بينما يغطّ بنومٍ عميقٍ راضٍ، بقيتُ متيبِّسة قربه. بدأتُ أبحث عن الله وأرغب بأنْ أجده فوق السقف القماشيّ الممتدّ كحاجزٍ أفقيٍّ بيني وبين السماء. فكَّرت بأغنية جدَّتي: «السماء تُهدي من تشاء»..

هل هذه هي هديَّتي؟

هكذا، وبهذه البساطة وهذه البشاعة، أصبحت زوجته؛

كابوسٌ ما زال يلازمني، حُفر على جدران ذاكرتي بإزميل الخوف، وأصبح أثقلَ منِّي، أحمله معي أينما ذهبت كحقيبتي.

لم أنم في تلك الليلة، كنت كطفلٍ فُطم لتوِّه عن صدر أمِّه.

هرولت إلى خيمة أهلي في الصباح الباكر جدًّا، دخلت إلى فراشي قرب إخوتي الذين ما زالوا نيامًا.

لطمتْ أمِّي على وجهها، صرختْ بي: «سما، ماذا تفعلين هنا؟»

قلت لها جملةً واحدة: «أريد أن أنام».

سحبتني من يدي، أوصلتني بخطًى سريعة إلى أمام خيمة منكر.

كمشتْ وجهي، وهمستْ بغضب: «لستِ صغيرة، هيَّا ادخلي إلى فراش زوجك».

إنَّني وحيدةٌ، ومهملةٌ كغصنٍ مسوِّس سُلِخَ عن شجرته.

منذ الأيَّام الاولى، بدأت أمّه تطالبني بمساعدتها: الطبخ، غسل ملابس كلّ أفراد العائلة، إحضار الماء من الخزَّان الكبير عند مدخل المخيَّم.

إلَّا أنَّني كنت كمن تلقَّى ضربةً قويَّةً على رأسه، لم أستوعب ولم أتحسَّن.

أتناول من بطانة حقيبتي إبرةً وخيوطًا، كنتُ أريد أن أسترجع نفسي في كلِّ غرزة إبرةٍ تخترق طرف القماش ساحبةً الخيط كأنِّي أسحب نفسي من قاعٍ رُميت به.

بتّ أشعر بِكُرهٍ قويٍّ تجاه منكر وأمّه. كلَّما طلبت منِّي شيئًا، أفعل العكس.

كانت تخلي لنا الخيمة، تخرج لتمضي بعض الوقت عند جاراتها.

يشاهد صورًا لنساءٍ عاريات على جوَّاله، ثم يأتي إليَّ، يقعي فوقي، يغطِّي وجهي بسترته، يتخيَّلني إحداهنَّ، أتمنَّع، أحاول أن أُبعده، أحرِّك يدي داخل الحقيبة أعبث بمحتوياتها. يصرخ بي:

«رغمًا عنكِ يا كلبة».

مضى شهرٌ وعشرون يومًا. في آخر مرَّة اقترب فيها منِّي، شدَّني من ذراعي، فلم أنصع، أكملت تطريزَ قطعةِ قماش، بدأ يزيح ثوبي عنِّي، كنت كامرأةٍ آليَّة، أشكّ الإبرة أسحب الخيط، ثم أشكّ الإبرة من جديدٍ وأسحب الخيط.

رمى أنكر بغضبٍ حقيبتي نحو الباب، فتفرَّقت منها كلّ محتوياتها.

هممتُ بالزحف نحو الباب لألمّ عدَّتي.

دفرني بركبته، سحبني، ثبَّتني، ونام فوقي.

اعتلاني جنونُ العالم كلِّه، رحت أصرخ وأقفز بالخيمة، كحيوانٍ صغير مفترس.

انهال عليَّ ضربًا بقدميْه، بيديْه، فخمشته بوجهه.

في يومي الأخير معه، قضى النهار يدخل ويخرج إلى الخيمة ويتطلَّع إليَّ.

وقضيت النهار أستخرج من حقيبتي أبرًا وخيوطًا، أقصّ قماشًا وأزيِّن أطرافه.

في يومي الأخير، لم تخرج أمّه، لم يخلع ثيابه، ولم ينزع ثوبي عنِّي.

طلَّقني عند المساء، مُخبرًا الشّيخ طٰه أنَّه متأكِّد من أنَّ جِنًّا يتلبَّسني، ويختبئ في حقيبتي الصوفيَّة.

عدت إلى فراشي قرب إخوتي، مع ثقوبٍ جعلت يدي اليسرى تمتدّ إلى الأشياء، تسرقها، علَّها ترتق كلّ هذه الثقوب.

ثلاثة أسابيع انقضت منذ أن توفِّي أبو سما، منذ أن قرَّرت الرحيل عن المخيَّم.

يغادر باسل وحده إلى بيروت حاملًا مهر أخته، وجواز سفره.

على أن تلحق به بعد أسبوع، وذلك قبل أن يحين الأربعون بعدَّة أيَّام كي لا يلفتا نظرَ أحد.

اتَّفقا على أن يلتقيا عند نقطة تجمُّع الباصات في بيروت.

في الليلة التي سبقت موعد رحيلها، تذهب سما بكلِّ حياة إلى المقبرة المتخمة بالموت.

ترشّ بعض الماء فوق القبر، ترمي بالقنِّينة جانبًا، بعدها توقَّفت تشحذ من ذاكرتها كلمات أبيها الأخيرة:

... «سما» هل تسامحيني يا ابنتي؟...

تهمس فوق التراب: «لقد سامحتك يا أبي. ولكنْ هل ستسامحني على ما اقترفتْه يداي من خطيئة؟!»

تبتعد سما عن المقبرة، تاركةً وراءها قبرًا يغطّيه الضباب، ملأته بصوتها قبل أن ترحل ساحبةً قدميْها اللتيْن لن تطآ هذه التربة مجدّدًا.

تتّجه نحو كرڤانة شروق لتودّعها، لكنَّها لم تتجرَّأ على الدخول إليها والتفوُّه بأيَّة كلمة، تشعر أنَّ شروق كشفت سرقتها، فلم تدخل..

تُكمل طريقها نحو خيمة عليا، تسمع من الخارج صراخ ابن عليا، بينما جدَّته تحاول تهدئته ريثما تعود أمّه. فلم تدخل..

إنَّها لعنةُ فستانٍ أبيض لُبس قبل أوانه!

لم تنم سما في تلك الليلة، يئنُّ ضميرها متخبِّطًا في صدرها، ليتها تقتلعه، فتقوى على تأمُّل وجوه إخوتها الغافين قربها للمرَّة الأخيرة!

«كيف سيأكلون طيلة أربعة أشهر؟!»

في الصباح، تلبس ثيابها، تعتمر قبَّعتها الصوفيَّة فوق حجابها، تُلقي على كتفها حقيبتها المحشوَّة بأوراق خضراء وزرقاء، ستشتري بها حياةً جديدة.

تنشغل أمّها بتوضيب ثياب زوجها بدموعٍ تسيل بهمسٍ مكتوم.

تنظر سما إلى الكنزة الزيتيَّة الصوفيَّة، وإلى أزرارها الثلاثة البنِّيَّة.

لم تره يرتدي غيرها، بالرَّغم من أنَّه خيَّاط، لم يُخط لنفسه أيَّةَ قطعةٍ بديلة طيلة حياته، كم كان وفيًّا لكنزته!

تسأل سما أمّها: «لمن ستذهب هذه الكنزة؟»

تتمخَّط أمّ سما، تهزّ برأسها علامةَ عدم المعرفة، ثم تقول بطريقة بديهيَّة: «ربَّما إلى عمّك الكبير، فمقاسهما متقارب».

تفكِّر سما بشكلٍ خاطف، لتهدِّئ من احتباس الدموع بمحجريْها، أنَّها لن تكون هنا حين يلبس عمُّها الكبير كنزة أبيها الزيتيَّة بأزرارها البنِّيَّة الثلاثة.

فيما تُلملم أمّ سما باقي الثياب عن الحصير، ووضعها في كرتونة الإعاشات، تمتدّ يدُ سما اليسرى بخفَّة، تقطع الأزرار الثلاثة البنِّيَّة من كنزة أبيها، ترميها في البطانة المخفيَّة.

تهمّ بالرحيل، تقول كاذبةً لأمّها: «سأذهب إلى الأرض».

تهزّ أمُّها رأسها، ثم تحرِّر نَفَسًا عميقًا مع كلماتها: «إن شاء الله سترتاحين من هذا التعب، رأيتك بالحلم تجلسين على عرش».

تُكمل كعرَّافة: «والله العليم عرشك هو خيمة الشاويش».

تلاحق سما حركاتِ يديْ أمّها التي تدكّ ثياب زوجها الراحل داخل الكرتونة، يطفق صوتها: «سأرتاح يا أمِّي!»

تريد توديع إخوتها، تتملَّى وجوههم، تغمرهم بحجَّة أنَّها

تخفِّف من حزنهم بعد رؤية ثياب أبيهم، تُجهَّز لمغادرة حياتهم بكرتونة إعاشات.

تخرج من الخيمة، تُلقي بحقيبتها الصوفيَّة على كتفها، تأخذ كيسًا خبَّأته خلف حوض زرعٍ بالقرب من الخيمة، وضعت بداخله قليلًا من ثيابها، علبة صغيرة من أبرٍ وخيطان، مع تلك الأقمشة البيضاء التي استحوذت عليها من هنا وهناك.

تمشي بضع خطوات، ثم ما تلبث أن تعود إلى باب خيمة أهلها كمتسوِّل، لا يمكنه الدخول من دون إذن.

تشعر أنَّها لم تعد تستحقّ أن تكون ابنةَ هذه العائلة. فقد خانت كلّ من فيها، وتركتهم يجوعون، لتشبع من أيّامها.

قبل أن تغادر، تركت على الرفِّ الممتلئ بالمعلَّبات، والذي سيفرغ بعد عدَّة أيَّام، ورقةً صغيرةً ملأتها بثلاثة أسطر:

«إن راودكِ حلمٌ أم لم يراودك، فقد رحلتْ طفلتكِ يا أمِّي، لقد كبُرَت أخيرًا.

البطاقة عند سوبر ماركت البلدة، ستستلمينها بعد أربعة أشهر.

وسامحيني بعد أن يزول غضبُك منّي، فقد سامحتك أنا أيضًا».

المخيَّم، ذاك الجحيم الذي يقرع أجراسه، يشدّ كلّ الذين وجدوا فيه إلى أسفل إلى أسفل، حيث النار المضرمة تعتاش من لحمهم الحيّ.

من أراد الخلاص، ليس لديه حلٌّ إلَّا أن ينجِّرَ سلَّمًا يوصله إلى الفوَّهة.

سلَّمٌ درجاتُه من جثثٍ محترقة، جثثٍ من آمال وأحلام وكرامات، جثثٍ من حياة محترقة إلى حدّ الترمُّد.

يضع قدمه على أولى الدرجات، ويُسرع في الصعود، قبل أن يتهاوى السلّم في فم النار مجدَّدًا، وما إن يرى ضوءًا رفيعًا يشرخ الدخان العابق حتى يقفز قفزته القاتلة الأخيرة ليتحرَّر.

هذه قوانين الجحيم!

فالخلاص قد لا يتمّ إلَّا بحرقِ آخرين.

إلى الماء. . .

تبتعد سما عن الفوَّهة، تمشي وسط البلدةِ كمجرمٍ ارتكب جريمته للتوِّ متلفِّتًا خائفًا.

تركب سيَّارةَ أجرة حاضنةً بكلتا كفَّيْها حقيبتها، تتشاطر المقعد الخلفيّ مع امرأةٍ لبنانيَّة وطفليْها، وعلى المقعد الأماميّ قرب السائق، ارتقى رجل سوريّ.

مرَّ عليهم كلّهم السؤال نفسه: «هل أوراقكم الثبوتيَّة معكم؟»

تنطرح على ذراعَي الطريق المقالع الحجريَّة، التي جوَّرت التلال وبدت كما لو أنَّها تعرَّضت لقصفٍ عنيف.

تمتلئ سما أيضًا بالكثير من الحُفَر العميقةِ التي لن تستطيع ردمها سريعًا.

تتوقَّف السيَّارةُ قربَ حاجزٍ للجيش اللبنانيّ متمركزٍ عند أوَّل

البلدة، يدقّق عناصره بهويَّة الداخل والخارج. يقول الضابط للسائق مستفسرًا منه:

«لبنانيُّون أم سوريُّون؟»

يشير السائق بإصبعه إلى الرجل على يمينه، ثم برأسه إلى الخلف نحو سما قائلًا: «سوريُّون».

مستدركًا: «لكنَّ السيِّدة الأخرى لبنانية».

يطلب الضابط منهم أوراقهم.

تُبرز السيِّدة اللبنانيَّة هويَّتها للعسكريّ الذي يقف عند نافذتها، من دون أن يتأمَّل كثيرًا بالهويَّة ردَّها إليها. ينتقل إلى سما، تمدّ له جواز سفرها الذي بقي له أشهر قليلة لتنتهي صلاحيَّته، وبطاقةً كرتونيَّةً زهريَّة اللون هي بمثابة تأشيرة إقامة من الأمن العامّ اللبنانيّ تُعطى للاجئين السوريِّين الذين يُقيمون في هذه البلدة الحدوديَّة. يأخذ وقتًا إضافيًّا ليقارن بين الصورة الملصقة على جوازها وبطاقتها الزهريَّة وبين وجهها.

فيما كان عسكريٌّ آخر يدقِّق في أوراق الرجل السوريّ، ثم ما لبث أن أنزله، فحاوطه الضابط وعسكريَّان.

بدا الرجل متوتِّرًا، يحمل أوراقه، ولا يتوقَّف عن الكلام والشروحات.

يُنزل السائق أغراضَ الرجل السوريّ وهو يقول: «لم أحرِّم على نفسي بعد أن أقلّ معي سوريِّين!»

تشيح سما بوجهها إلى خارج الزجاج، تتابع ما يحدث مع

الرجل السوريّ. مرّ طيف باسل في رأسها، تتساءل: «هل أوقفوه هنا؟

لم يمضِ وقتٌ كثير، حتى سمح الضابط للرجل أن يُكمل طريقه. تمشي السيَّارة تتابع طريقها، يتنهَّد الرجل السوريّ، يقول: «والله لا أشتكي، معهم حقّ أن يدقِّقوا هكذا، فالإرهابيُّون كالجراد في كلِّ المكان»

يُجيب السائق كأنَّه يكمل حديث الرجل: «بالفعل، حتى نحن اللبنانيِّين يُدقَّق بأوراقنا، الإرهاب من داخل الحدود وخارجه».

يُضيف الرجل السوريّ: «الله يحمي الجيشيْن، السوريّ واللبنانيّ».

لم تكن سما تدعو لأحدٍ بالحماية، تريد أن تنجو، أن تبتعد.. ولا فرق عندها من الذي سينتصر في نهاية المعركة!

تتوقَّف السيَّارةُ عند آخر الطريق التابعة للبلدة. تترجَّل المرأة، بينما كان الرجل السوريّ يسحب حقيبته من صندوق السيَّارة..

تبقى سما تتلفَّت حولها، إلى أن سألها السائق: «إلى أين تذهبين؟»

تشعر أنَّه باغتها بسؤاله، تجمد لثانيةٍ، قبل أن تقول: «بيروت».

يُشير لها السائق إلى الجهة الأخرى من الطريق، حيث تصطفُّ عدَّة باصات، ويشرح لها: «انظري، تلك الباصات تتَّجه مباشرةً إلى بيروت».

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

التِّيه...

منذ ثلاث سنوات، وصلنا إلى هذه البلدة اللبنانيَّة، إلى تيهنا، محمَّلين بحقائبنا المحشوَّة بثيابنا وذاكرتنا.

يجلبُ الإنسان معه أيضًا في حقائبه أيَّامًا عاشها.

ظننّا أنَّنا هنا سنتخلَّص من التراب العالق فينا، كمن اتَّسخ طينًا وقفز إلى بُحيرة جليد. ما نفع الماء المتجمِّد للطين؟ كيف يُزيله؟!

أبي كان يحمل فوق ظهره ماكينةَ خياطته، تفلت من فمه جملةٌ واحدة من حينٍ لآخر، وكأنَّه يواسي حِمله الثقيل: «أحمل باب رزقي على ظهري».

توقَّفنا على تلَّةٍ منخفضة تُطلّ على مجمَّعاتٍ بشريَّة تملأ الأرض.

توقَّف أبي، أنزل ماكينته. جلس على الأرض كمن اجتاز الصحراءَ بأكملها، وانهارت قواه أمام آخر ميل متبقٍّ، من دون أن يلتفت إلى أحدٍ فينا، همهم: «لديَّ إحساسٌ أنَّني لن أغادر هذا المكان إلَّا إلى التربة».

نمضي بين الخِيَم، يتقدَّمنا أحدُ رجال الشاويش ليجد لنا خيمةً فارغة.

من الوطن، إلى مخيَّم الوطن، كانت ليلتنا الأولى تحت الخيمة مريرةً إلى حدِّ الصراخ. ذلك الصراخ المكتوم الذي يبتلع الصوتَ بكلِّ أطرافه المدبَّبة الحادَّة، مردِّدًا صداه في جوف كلٍّ منَّا:

«إنَّنا الآن لاجئون».

اندسسنا في تلك الأفرشة الرقيقة، تحتنا حصيرٌ بلونٍ بنِّيٍّ، نُقش عليه عبارة «حملة الإغاثة لإخواننا السوريِّين».

ظللت أقرأها طيلة الليل، وأتأمَّل اصطفاف الكلمات، ثم أردِّدها.

وفي الصباح، قلبت الحصير إلى الجهة الأخرى، لأُخفي تلك الجملة..

لكنَّها لم تختفِ، لقد جرَّت معها كلّ التذلُّل الذي تكالبنا عليه، للاستحصال على حرامات، ومؤونة، ومازوت.

نتجمهر عند أوَّل يدٍ تصل إلى المخيَّم. نتقاتل كدجاج المزارع، على كلِّ ما يُشحذ لنا من فُتات الدول!

بعد مدَّة، تعايشنا مع هويّتنا الجديدة: نازحون[1]، لاجئون، لا فرق.

بعض الناس الذين تأقلموا أسرع من غيرهم ما انفكُّوا يردِّدون:

«لاجئون أفضل بمئة مرَّة من أموات».

(1) يُطلق على اللاجئ السوريّ في لبنان صفة «نازح»، لأنَّ لبنان لم يوقِّع اتِّفاقيَّة اللاجئين عام 1951، وبروتوكول العام 1967.

إنَّها تُغادر أخيرًا. ما يقارب الساعتيْن ونصف الساعة تحتاج من الوقت لتصل إلى بيروت.

تتهاوى على المقعد الأخير، قبل أن يمتلئ الباص بالركَّاب، تُحني رأسها قليلًا، تخلع الحجاب عنه، ثم تفرد شعرها البنِّيّ المجعَّد.

لا تزال تتذكَّر ذلك اليوم الذي فُرض به عليها أن تلبس الحجاب.

يومها، خُلق حول حياتها حبلٌ، بدأ ينمو كلَّما نمت، ويكبر كلَّما كبرت، ويشتدّ كلَّما يفيض جسدها أنوثة، إلى أن حُزم بقوَّةٍ وخنقها يوم تزوَّجت أوَّل مرَّة.

ها هي اليوم بخلعها الحجاب تفكّ أوَّلَ عقدةٍ من الحبل، العقدة التي جرَّت وراءها كلّ العقد الباقية.

ينطلق الباص إلى بيروت. في أعماقها طاقةٌ وحماسٌ وشيءٌ أشبه بالجنون، هل تخلَّصت من المخيَّم حقًّا؟ هل تبتعد الآن نهائيًّا؟ ثم ما يلبث أن يخبو شعورها، فعلى يمينها، تجلس امرأةٌ عجوز مع ابنتها.

تلصق سما جسدها بحديد الباص، تسند رأسها إلى النافذة المشقوقة بضعة ملّمترات، وتهوي في حزنٍ، تعرف منبعه. كم تمنَّت لو تتَّكئ أمّها على عصاها وعلى يدها، لكنْ لن يتسنَّى لها رؤيتها حين تشيخ..

تقرّ في نفسها بأنَّ الله يعاقبها بهذا الوجع، على هذا المقعد تحديدًا ومع هذه العجوز وابنتها.

تستدير بوجهها إلى الخارج، تبدّد الوقت ناظرةً إلى الطريق حيث الضباب الذي يعيق رؤية أيّ شيء يمكنه قلب أفكارها، وإخماد اشتعال ضميرها.

يشتدّ البرد، تغلق النافذة نهائيًّا، يقرِّع الجوع معدتها.

الجوع، هذا الشعور المخيف إلى حدِّ البكاء!

تمزِّقها وجوه إخوتها المتزاحمة بمخيَّلتها، وهم يضحكون، ويبكون، ويتكلَّمون... وسيجوعون.

كيف تُسكِتُ كلّ تلك الأفواه المفتوحة الصارخة في داخلها؟

تُحشر في باصٍ يشقّ الطريق بصعوبةٍ لكثرة الضباب، على طريق ضهر البيدر الجبليّ الذي يصل البقاع اللبنانيّ بالعاصمة بيروت.

لكنَّها، كلَّما ابتعدت قرَّبتها ذكرياتها من أمّها وإخوتها.

يجب عليها إضرام النار بذكرياتها حتى يبرد قلبها.

تجتثّ حلمها الذي انداح من بين كومة الأفكار المشوّكة. ستصل إيطاليا، ستصبح مصمِّمة فساتين بيضاء، تدسّ يدها في حقيبة بطانتها باحثة عن الورود الملوَّنة، مُعيدةً برأسها شكل فستانها المُتخيَّل.

لم تكن هذه الطريق الطويلة سوى مأزمٍ ضيِّق، وعليها أن تقطعه حتى لا تنطحن بين شقَّيْه.

ينهدل رأسها على الحديد البارد، تغفو.

تراءى لها الجبل عاليًا شامخًا، وهي كانت أسفل الوادي تزرع شجرةً لتكبر، فتأكل منها، وتطول فتتسلَّقها لتصل القمَّة. وما إن وطئت قدماها القمَّة، ذُعرت، وجدتها جرداء، منعزلةً باردة. رمت ببصرها إلى أسفل، فبدا الوادي مُخضرًّا كقطعةٍ من جنَّة. عاودت التعلُّق، كقرد، بأغصان شجرتها، ونزلت إلى الوادي، إلى الجنَّة. فلم تجدها! أين تُراها اختفت؟ هل خُدعَت؟ أم عُميَت؟

يتوقَّف الباص، يتوقَّف الحلم، تنقشعُ الشمس مفرِّجة عن البنايات والضجيج. يبدأ الركَّاب بالنزول.

تهمّ ابنة العجوز لتساعد أمّها على الوقوف، فتسألها سما بلهجة طفلةٍ بقيت وحدها وسط الزحام: «هل وصلنا إلى بيروت؟»

«هنا بيروت، وهذه آخر نقطةٍ لهذا الباص».

على الرصيف الممتلئ بالناس، والركَّاب، والحقائب،

والزمامير الصادحة، ترتبك سما متسمِّرةً في مكانها، تطبق يديْها على حقيبتها، متسائلةً إن كان باسل سيعرفها من دون حجاب.

تتلفَّت حولها، تبحث عنه، تتفقَّد كلّ الوجوه، تشيح بعينها إلى الجهة الأخرى من الطريق، تفكِّر كم الساعة الآن؟ هل انقضى قبل الظهر؟!

يأتيها صوت باسل، تبدو كمن عثر على بوصلته في أرضٍ كبيرةٍ تاه فيها.

تعترف له: «خفت أن لا تعرفني!»

يستغرب جرأتها، تخيفه قدرتها على التخلِّي بسهولةٍ عن شيءٍ فُرض عليها. وجدها متمرِّدةً أكثر ممَّا عرفها.

يخاف منها وعليها، فقد اعتاد أن تُخفي جمالًا يكتمل بشعرها.

ها هي اليوم أمامه، كاشفةً عن شعرها البنِّيّ المجعَّد المندسَّة بين خصلاته بذور الحرِّيَّة والحياة.

تقول بطريقةٍ دفاعيَّة: «أنت تعرف أنَّني لا أطيقه، وأخبرتك أنَّني سأخلعه حينما أبتعد عن الجحيم».

يُمسك بيدها، يجرّها بعيدًا من موقف تجمُّع الباصات.

يسارع في مشيته، هاربًا منها، لكنَّه متكمِّشٌ بيدها يجرُّها خلفه.

تترك يدها بيده لتبدِّد شعورَ التّيه الذي ماج في قلبها.

الرحلة في بيروت ليست طويلةً، لا يمكنهما المكوثُ هنا، لا مأوى لهما.

كان باسل قد أنهى كلّ الترتيبات سابقًا، تواصل من خلال الفيس بوك مع أحد معارفه الذي لجأ إلى ألمانيا. استعلم منه عن التفاصيل والخطوات التي يجب أن يقوم بها.

أوَّلها حَجْزُ مقعديْن في باخرةٍ سياحيَّة تنطلق من مرفأ طرابلس شمال لبنان، إلى مرفأ مرسين جنوب تركيا. تكلفة التذكرة للشخص الواحد 125 $، تستغرق الرحلة ما يقارب 13 ساعة. ستنطلق الباخرة عند المساء.

يذهبان بباص من بيروت إلى طرابلس، تستغرق رحلتهما ما يقارب الساعة ونصف الساعة. تجدُ سما الطريق من البقاع إلى بيروت جبليَّةً وعرة، تمتلئ بالضباب الذي يجثو على الصدر؛ أمَّا الطريق من بيروت إلى طرابلس، فهي خطٌّ بحريٌّ يمتدّ بأسلوبٍ سلسٍ مريح، لما تعطيه مساحة البحر الواسعة من انفراجٍ نفسيٍّ بالرَّغم من الغيوم الرماديَّة التي تطرِّز رقعة السماء.

ربَّما ليست جغرافيَّة الطريق ومناخها هما اللذان أحدثا هذا الفرق في نفسها فقط، بل الوحدة التي ما إن تتشبّث بالإنسان، حتى تُغرز أصابعها في لحمه، مفرغةً منه كلّ الدود الذي ينغل في أعماقه..

في هذه الرحلة يرافقها باسل، يجلس قربها. فتسمع أنفاسه الهادئة، وتستعيد الأمان.

فتلك الثقوب الآخذة بالتوسُّع، قد يتوقَّف تمزُّقها، وتبدأ بالتلاشي.

لأوَّل مرَّةٍ في حياتها، ترى البحر قريبًا بشكلٍ مخيف.

عاشت إلى عمر الرابعة عشرة في قريتها الجبليَّة، ولم تغادرها إلَّا نازحةً إلى بلدةٍ جبليَّة أيضًا. أمَّا الآن، وبعد أن تحرَّرت من قساوة الجبال، من قساوة التراب، ترى أمامها البحر بكلِّ اتِّساعه وامتداده المائيّ.

الساعة الثامنة من مساء آخر يومٍ أيَّام من تشرين الأوَّل، وفي آخر أيَّامٍ لهم في لبنان، سما وباسل وكلّ هؤلاء السوريِّين يحتشدونَ في فم المرفأ.

فم المرفأ كبير، على بابه ترسو الباخرة المقصودة، باسطةً بابها العملاق، مستلقيةً على جزءٍ واسعٍ من الشاطئ.

الزحمة كثيفة والليل كثيف.. والجوّ يتقلَّب بين خريفيٍّ يستعصي على الرحيل، وشتائيٍّ يسارع بالمجيء.

الجميع ينتظرون الانتهاء من ختم جوازاتهم في مبنى الأمن العامّ اللبنانيّ الواقع مقابل الشاطئ.

وأمّ سما تنتظر عودة ابنتها إلى الخيمة. لم تصدِّق ما يُقال بعدما انتشر خبر هروبها من المخيَّم. فمنذ عدَّة ليالٍ، رأتها بحلمها تجلس على عرش؛ فاعتقدت، بل وصدَّقت بأنَّ هذه

رسالةٌ واضحة أنَّها سوف تصبح زوجة الشاويش، وتتربَّع بالتالي على عرش المخيَّم. وها هي الآن تدفن رأسها بالتراب، بينما ابنتها على وشك ملامسة الماء. الحزن عبَّأ قلبها، فأحلامها لم تعد تصلح!

أمَّا الشاويش فجُنّ، ليس من الحبّ، بل من الهزيمة التي ألحقتها به فتاةٌ، مجرَّد فتاةٍ يراها كلّ العالم ضعيفة. جُلّ ما فعله أنَّه حمل عكَّازَ عمّها، كسرها إلى خشبتيْن، وأمر المتحلّقين حوله أن يعلِّقوها عند مدخل المخيَّم..

فهو مهما أتقن الطيران لن يصل الفضاءَ بأجنحة.

الباخرة ستنطلق في الثانية عشرة من منتصف الليل.

تتراخى الحقائب عند الأقدام المتعبة، وترتفع الأيدي تخبِّئ تثاؤباتٍ متكرِّرة.

قلَّةٌ من المسافرين كانوا لبنانيِّين، أمَّا الغالبيَّة إن لم تكن الأكثريَّة المطلقة، كانوا من السوريِّين المتواجدين في لبنان، أو القادمين من سوريا إلى لبنان ليغادروا بحرًا إلى تركيا، بعد أن أقفلت تركيا المعابر والطرقات بينها وبين الحدود السوريَّة، من جرَّاء الحرب المشتعلة.

بين المسافرين، عائلةٌ أجنبيَّة واحدة، أبٌ وأمٌّ وطفلاهما ـ تأخذ نظراتهما شكل الحذر. حرصهما المبالغ به على ولديْهما، ونقلهما أغراضهما إن مشوا مترًا واحدًا.. لا ينظران، لا يبتسمان لأحد! كلّ هذه التصرُّفات مدَّت بينهما وبين المسافرين جسرًا

مقطوعًا. يتحدَّثان لغة لم تكن مفهومة لسما وباسل، هل هي الفرنسيَّة أم الإنكليزيَّة! ولم يتبيَّن للسوريِّين من أيَّة دولةٍ هما. وإلَّا لكانوا هجموا مستفسرين منهما عن قوانين اللجوء في تلك الدولة.

ما إن يشدّ البحر الباخرة بعد قليل لتذوب في مداه، حتى تتفتَّق الخيوطُ الرفيعةُ الأخيرة الواصلة هذا البلد بهؤلاء المستفسرين المنتظرين!

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

تلفَّعت الحرب بالشرِّ، واحتدمت المعارك في بلدتنا، فقرَّر عمِّي الكبير أن نغادر، صُفق باب الوطن خلفنا.

قال لأبي وأعمامي الآخرين: «ماذا تنتظرون أن تفقدوا أولادكم أمام أعينكم؟ إنَّهم يقصفون مناصري الإسلام».

رتَّب كلّ التجهيزات، تكلَّم مع المهرِّب بحسب قوله، ليتبيَّن لنا لاحقًا أنَّ المهرِّب هو شاويش المخيَّم.

خبَّأتُ على عجل في حقيبتي الصوفيَّة: الأبر الرفيعة منها

والعريضة، والخيوط، وعلب الخرز الملوَّن.

أمِّي تخبط كفًّا بكفٍّ، وتصرِّح بصوتٍ يملأه الخوف: «رأيت حلمًا مخيفًا، ها قد بدأ يتحقَّق، اللَّهمَّ ارحمنا وساعدنا..».

بعدها، راحت تلمّ ما ارتأته مناسبًا ولازمًا لرحلةٍ كهذه، مستبعدةً ذاك الغرض، ثم متذكِّرةً أغراضًا أخرى.

تحمل الحقيبة، فتجدها ثقيلة. تتساءل: «من أين أتى كلّ هذا الوزن؟»

إنَّ الأغراض التي انتقتها لم تكن ثقيلةً، فكلّها أشياء خفيفة.

قد يكون الحزن الصغير، والهمّ الصغير، والألم الصغير، والغصَّة الصغيرة، والدمعة الصغيرة، كلّها أشياء بلا وزن.. نظنُّها تزول!

لكنَّها تتراكم فينا بأوزانها الخفيفة، فتُثقلنا مع الأيَّام، ونغدو غير قادرين على حمل أنفسنا باتِّجاه الفرح.

كم تشبه حقائبنا دواخلنا؟!

خرجنا في وَضَح النهار، بعد أن أعطى كِلَا الطرفيْن هدنةً، واستعدّ الجيران كلّهم تقريبًا للرحيل.

تركنا أبي في عهدة عمِّي الكبير قرب أبوابنا المغلقة، وهرول مسرعًا إلى محلّ الخياطة. ثم عاد يحمل بين يديْه ماكينة خياطته كوجهٍ مريضٍ تعافى لتوِّه.

في طريق خروجنا من البلدة، كانت بعض النفوس حاقدةً على كلا الطرفيْن. على نظامٍ لم يقوَ على حماية أبنائه، وعلى

جماعاتٍ نادت بحرِّيَّة مُكبَّلة.

قبل أن نصل إلى الحدود على وجه التقدير، نزلنا من السيَّارات التي أقلَّتنا.

كانت الثلوج المتراكمة قد حوَّلها الصقيع إلى طبقاتٍ صلبة تهرس أقدامنا.

قال أبي، وهو يثبِّت ماكينته فوق ظهره: «حظّنا جيِّد، فلا عاصفة اليوم نُطمر تحت ثلوجها».

ربَّما هنا تحت أقدامنا، ترقد جثثٌ من دفنتهمَ الثلوج منذ أشهر وهم يحاولون أن يعبروا إلى ضفَّة الأمان الدافئة.. إلى خيمة!

أخذنا دربًا ترابيَّة، نحثُّ الخطى حتى لا نقع بأيدي الجيش اللبنانيّ الذي يمنع دخول السوريِّين بهذه الطريقة، بعد أن طفح لبنان بنا.

أصبح كلّ سوريٍّ يرغب بالدخول إلى لبنان أن يتقدَّم بطلب ڤيزا، أو بحضور كفيلٍ يؤمِّن له دخوله، يكفله أمام الدولة اللبنانيَّة.. ثم يستغلّه.

المهمّ، عند هذه النقطة كان دخولنا، وبعدها تُسوَّى أوضاعُنا مع الأمن العامّ اللبنانيّ.

لاقانا الشاويش عند آخر نقطةٍ تفصل البلديْن. نقف عند الحدود الجبليَّة المتداخلة، عند تلك النقطة التي إن تراجعنا خطوةً عنها نعود مواطنين، وإن تقدَّمنا خطوةً فيها نصبح لاجئين.

عبرنا . . .

عبرنا من القذائف، إلى المذلَّة.

عبرنا من ترابٍ إلى تراب. .

أضعت هويَّتي السوريَّة عند ذلك الحدِّ الفاصل، واستبدلتها ببطاقةٍ زهريَّة اللون، كُتب عليها «لاجئة سوريَّة في لبنان».

إنَّها الثانية عشرة من منتصف الليل، الباخرة لم تتزحزح بعد.

علت التساؤلات والاستفسارات من المسافرين التائقين لملاقاة أحلامهم الجديدة، لكنْ من دون جدوى، ولا جواب..

في مثل هذه الأجواء، يعلو منسوب التعارف، وتتقرَّب النفوس من بعضها لتزجية الوقت البطيء. لم يكونوا بحاجةٍ إلى إذنٍ وبروتوكولات تعارف ليفتح أحدهم حديثًا مع أيِّ أحدٍ موجودٍ في المكان. فالكلّ يتشارك المصير نفسه، لذا تمحورت الأحاديث حول الحياة في أوروبا. البعض وجهتهم ألمانيا، وآخرون السويد، وعائلات تنوي البقاء والاستقرار في تركيا.

كلٌّ يرمي بخطَّته، ولا خوف من السؤال الذي بدأ يطفو بين الجميع كشحم هذه الباخرة فوق صفحة الماء: «هل لديك رقم مهرّب؟»

من لديه رقمُ مهرِّبٍ يعطيه للآخرين، ومن يتخوَّف، يأخذ الرقمَ ويُلقيه في جيبه، على أمل أن يلتقي بمهرِّبٍ يرتاح له في تركيا.

تعرَّفت سما وباسل بأخٍ وأخته، هو في عمره الثامنة عشرة، وهي في التاسعة عشرة، من أبٍ سوريٍّ وأمّ لبنانيَّة، تاركين وراءهما وطنًا، لبنان، وُلِدا وتربَّيا فيه بهويَّةٍ سورية.

تشرح الاخت كأنَّها تُلخِّص حالتهما: «أورثتنا أمّنا وطنًا بلا هويَّة، وأورثنا أبونا هويَّة بلا وطن».

في الثالثة فجرًا، يفرغ الشاطئ من كلِّ نأمة. يصعد المسافرون إلى الباخرة، كلٌّ يأخذ مكانًا أو مقعدًا، ويُلقي بنَعَسه وتَعَبه وقَلَقه فوقه.

عند الخامسة، تنطلق الباخرة مترنِّحةً بارتجاجٍ في البداية، فتستند سما إلى باسل بعد أن أصابها دُوار البحر وتتأبَّط ذراعه، ثم بعد ما يقارب النصف ساعة، بدأت بالتوغُّل الهادئ العميق في الامتداد الأزرق.

ما إن لاح الشروق يبسط روعةَ ألوانه في طرفٍ للسماء، يسحب باسل قصاصةَ الجريدة من بطانة حقيبة سما، يُعيد قراءتها:

«ليس لي إلَّاك تزرع حولي ألوانًا، تغمض عينيَّ عن سوادي..

تسكب من مطرتك فوق تصحُّري، ماءً مشبَّعًا برائحتك الترابيَّة...».

ثم يهمس لها بطريقةٍ أرادها خاليةً من أيَّة تأتاة:

«أنتِ سمائي، اتركيني أدفن سوادي بك، لنتلوَّن!»

إنّ الألوان التي نسعى إلى طرش جدراننا السوداء بها، مهما كانت ألوانًا قويَّةً وزاهية، لن تستطيع أن تخفي سوادنا، ما لم نحفّه، ونقشّره، ونغسله، لنعيد البياض.

تبتعد سما عن التراب، تُغرق المياه كلَّ مسافةٍ قد تُرجعها إلى المخيَّم.

إنَّها المرَّة الثانية التي تعبر فيها دولًا، ولم تُلاحظ الحدود الدقيقة بينها، لكنَّها تخضع لقوانينها.

بينما كان للإنسان الأرضُ كلّها، بنى لنفسه حدودًا وانسجن فيها.

سحبت من حقيبتها بطاقةً باللون الزهريّ، كتب عليها «لاجئة سوريَّة في لبنان»، رمتها في البحر.

وأيقنت حينها أنَّها تغادر لبنان أخيرًا.

رست الباخرة عند شاطئ مرسين جنوب تركيا، بعد مرور 13 ساعة إبحار.

ينبجس المسافرون الذين راحوا يتدافعون نحو البرّ، كنبعٍ شقّ الأرض بعد شتاءٍ طويل.

ها هم ابتعدوا عن الموت، ها هم يقتربون من الحياة.

يتفرَّقون كلٌّ إلى وجهته، منهم من يتَّخذ وجهة مدينة مرسين ليستقّر فيها، أو لينتقل بعدها إلى مدينةٍ تركيَّةٍ أخرى.

يقول أبٌ من الذين قرَّروا البقاء في تركيا: «سأبقى هنا، لن نعبر إلى اليونان بقارب الموت.. سأعود إلى بيتي في سوريا حين تتوقَّف الحرب».

تقول أمٌّ تحمل طفلًا رضيعًا: «سأعبر، حتى أهب ابني حياةً جيِّدة، وإن متنا فيكون هذا نصيبنا».

يترافق باسل وسما مع مجموعةٍ كبيرةٍ من المسافرين إلى محطَّة الباصات المتوجِّهة إلى أضنا. عند المحطَّة، تتوافد الوجوه المنتظرة الباحثة التي تشي بالهويَّة السوريَّة.

يستقلُّون باصًا كبيرًا يصل بهم خلال سبع ساعاتٍ إلى مدينة أضنا.

وجدوه مريحًا بعد رحلتهم الطويلة في الباخرة التي نخرت مقاعدُها ظهورهم.

المقاعد بالباص كبيرةٌ مريحة، ونظام التدفئة ينشر هواءً ساخنًا يرخي الأجساد المنهكة.

يتجوَّل شابٌّ بين المقاعد، يسأل بكلماتٍ إنكليزيَّةٍ خفيفة الركَّابَ على اختلاف هويَّاتهم ووجهتهم، إن كانوا يرغبون بفنجانٍ من الشاي أو القهوة.

يهتف أحد السوريِّين من مؤخّرة الباص: «تحيا تركيا!»

يمتعض أحد السوريِّين من هذا التعليق، يبتسم بسخرية ويهمس لزوجته: «أنساه فنجان شاي القصف التركيّ على بلدنا؟!»

يُلقي باسل بذراعه على كَتِفِ سما، يشدّها إليه، يتأمَّل شعرها البنِّيّ المعقوص. أمَّا هي، فتُرخي برأسها على كتفه.

يفكِّر بخوف، بعد أن جاف عينيْه النوم، إن كانت هذه الرحلة وهذه الخطوة ستؤمِّن له حياةً يستحقّها مع سما.

كان يمكنهما أن يبقيا في لبنان، ويبتعدا إلى أيَّة مدينة، أو بلدةٍ أخرى يستقرَّان، ويتزوَّجان.

يتذكَّر ما قالته له يومًا، حين أصرّ على أن يهربا من المخيَّم، ويتزوَّجا بعيدًا:

«سأخيط حياتي، كما أشاء، بالخيوط التي أجدها مناسبة، حتى لو كانت هذه الخيوط متشابكةً، سأفكّها خيطًا خيطًا، وأُعيد خياطتها».

يجول ببصره على وجهها، يعترف في أعماقه أنَّها أقوى منه وأنَّ خيارها يرعبه.

يقف الأخ في المقعد المقابل، يفتح حقيبته ويسحب منها كنزته السميكة، ليحشرها برفقٍ تحت رأس أخته الغافية.

يراقبه باسل..

تنبثق ورد أمامه، تقضّ مضجعه، في آخر صورةٍ لها تخلع نظَّارتها وتتعثَّر بفستانِ عرسِ سما، بينما تُجرُّ إلى حياةٍ وعرة يصعب عليها تخطِّيها.

يُدرك أنَّ ذنبه لن يفارقه مهما عبر بحارًا وغيَّر مدنًا، وبالغ في الابتعاد، وكبَّر المسافات..

إنَّها هنا، في وجدانه الذي يئنّ، لن يتمكَّن من إسكاته مهما علا ضجيجُ الحياة حوله وفيه.

يفكِّر أنَّه كان عليه أن يعارض زواجها، أن يملي على أبيه ما تريده أخته، لكنَّه لم يفعل، بل فعل العكس.. يخطر له لو يعود ويُرجع لها مهرها، يعتذر منها، تقوم بالعمليَّة، فترى حياتها جميلةً من جديد..

يريد التحليق، لكنَّه يهاب المرتفعات. يريد تجاوز البحار، لكنَّه يهاب عمق المياه. يقف مكانه، بين الأرض والسماء، لا هو يطير، ولا هو يغوص!

عالق بعقدة الوسط ومساوئ الوسط. التطرُّف حلٌّ لقتل الخوف.

يهرب من وجه ورد الذي يطرق أبواب ضميره بإصرار، ومن دون توقُّف. يلجأ إلى سما، إلى أنفاسها التي تعلو وتهبط بوتيرةٍ متناغمة.

يستسلم، يشحذ سلامًا لا يهبه إلّا النوم.

يستقلّان من محطّة الباصات سيَّارةَ أجرةٍ إلى مطار أضنا مباشرةً، ثم ينتظران ما يقارب الثلاث ساعات، من زحمة المسافرين، ليتمكّنوا أخيرًا من الحصول على حجزٍ إلى إزمير.

بعد ساعة طيران أو أكثر بقليل، وصلا إلى غربيّ تركيا، إزمير.

إزمير، عروس بحر إيجه، هذه المدينة ذات القدرتيْن الرهيبتيْن: سلب حياة، أو وهب حياة.

ضمَّت مؤخَّرًا مَعْلمًا جديدًا، يُضاف وصمةَ عارٍ على جبين الإنسانيَّة، وهو «مقبرة الأرقام».

تُدفن فيها جثامين مَنْ غرقوا في مياه بحر إيجه، محاولين الوصول إلى أقرب ترابٍ لإحدى الجزر اليونانيَّة[1].

انتصبت الشواهد فوق قبورٍ تحمل أرقامًا، لاستحالة معرفة أيَّة معلوماتٍ عن الغرقى، لا أسماءهم، ولا تاريخ ولادتهم، ولا حتى تاريخ موتهم.

سُجِّلت على الشواهد تواريخُ انتشالهم من البحر!

---

(1) 3800 شخصٍ على الأقلّ قضوا، أو فُقدوا في أثناء عبورهم البحر عن طريق الهجرة غير الشرعيَّة نحو أوروبا (المفوَّضيَّة العُليا للاجئين في الأمم المتَّحدة).

وهذا كلّ شيء..

يُصلِّي إمامُ جامع تركيٌّ على جثامينَ ستوارى الثرى بعد صراعٍ مع الأمواج، حيث التقاهم الموت ساخرًا منهم ومن رغبتهم حين تمنُّوا في لحظة الغرق أمنيةً وحيدة: «نريد الموت على ترابنا».

فمن لم يمت تحت القصف أو على يد الملتحين، مات هنا على يدي العروس إزمير التي يقدِّم لها بحر إيجه أضاحيَ بشريَّة..

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

موطني... موطني..

هل أراك

سالمًا؟

منعَّمًا؟

بينما أخوض العراك مع ذاكرتي البلهاء لأسترجعَ كلّ ما حدث، أسمع نشيدَ «موطني» قد بدأ يعلو من إحدى الخيم المجاورة.

في تلك الفترة، حين ألقت القوَّات الجوِّيَّة السوريَّة فوق المنطقة منشوراتٍ تحذيرٍ، جاء بها «اهربوا»، انتشر الرعبُ لأنَّ قرانا تخبِّئ وتحمي جماعات ضدَّ النظام.

يهجم عمِّي الكبير بقدمه المبتورة كثوْرٍ كهلٍ ليساند المجموعات المسلَّحة في بناءِ سواترَ ترابيَّة، ولمدِّها بالطعام واللوازم اليوميَّة، مع مساعدة بعض اللجان الشبابيَّة المؤيِّدة لما يسمُّونه ثورة.

كان مقتنعًا بأنَّ هذه الفصائل الإسلاميَّة التي تجتاح كالجراد المسموم بلدتنا جاءت لنصرة المستضعفين في سوريا، مهاجرين وأنصار.

الأنصار كانوا رجال البلدة والبلدات المجاورة، والمهاجرون هم شباب ورجال من مختلف الأعمار، قَدِموا من دول العالم العربيّ والغربيّ.. لنصرة الأمَّة الإسلاميَّة.

لم أكن أعرف أنا مع من؟!

مع الذين يحلِّقون فوق رؤوسنا بالبراميل المتفجِّرة! أو مع الذين كانوا بكلِّ الأوقات، وهم يمرُّون مسرعين بسيَّاراتهم، يدكُّون أسلحتهم على أكتافهم ويصيحون قربنا بصوتٍ مرعب: «الله أكبر..»؟

كيف يمكن لعبارة مثل «الله أكبر» أن تكون مرعبة هكذا؟

كيف يُعقل للسماء أن تمطر موتًا، والأرض أن تنبت موتًا؟

كنت أنتظر أبي ليقول رأيه، فأقلِّده. يردِّد بشكلٍ سرِّيٍّ ومبطَّن أمامنا فقط:

«اللحى يملأها البقّ والبراغيت!»

أنا كأبي، لم أحبّ اللِّحى، لكنِّي حين رأيت باسل أوَّل مرَّة، لفتتني لحيته، وشدَّتني لأُعيد النظر إليه مرَّةً أخرى. لحيته الفوضويَّة تشبه غرفةً مليئةً بأدواتٍ موسيقيَّةٍ متنوِّعة، مبعثرة بشكلٍ غير منظَّم، تبثّ بروحي أنغامًا.

من وقتٍ إلى آخر يردِّد أبي أيضًا: «ليت الثورة وُلدت من بطون الجامعات، لا من بطون الجوامع».

لم أفهم ما هو الوطن، إلَّا من خلال محلّ خياطته وأزقَّة حارتنا ومنزلي، ومادَّة القوميَّة التي تجرّعناها في مناهجنا لنحصِّل علامات أكثر.

ربَّما رسب الجميع في حبِّ الوطن!

المشهد في إزمير كثيفٌ بعائلاتٍ تفترش الأرض، حزمت أمتعتها بحقائبَ أو بأكياسٍ بلاستيكيَّة سوداءَ كبيرة.

جنسيَّاتٌ مختلفة: سوريُّون، فلسطينيُّون، عراقيُّون.. وغيرهم من دولٍ «معتدية» على حقوق الإنسان، يجتمعون كلّهم في وسط المدينة. أُسدلت عنهم صفة «مسافرين» وتحوَّلت إلى «مهاجرين».

يتَّخذون من ظلال شجرةٍ أو حائطٍ أو بهو مسجد مأوًى، بعد أن مضت أسابيع، وأحيانًا شهورٌ، على وجود أغلبهم هنا، من دون النجاح في الهرب والإبحار. لأسبابٍ عديدة، منها أن يكون المهرِّب الذين وثقوا به قد اختفى، آخذًا معه كلّ ما يملكون.

وآخرون يتمدّدون على الأرصفة منتظرين إشارةً من مهرِّبهم لينطلقوا إلى نقطة المركز، هي نقطة الانطلاق قرب بحر إيجه، حيث سيتأبَّطون الأمواج لتقلّهم إلى الضفَّة الأخرى من البحر.

منهم من بقي ينتشر في المقاهي، بعضهم ما زال يتأنَّى في اختيار المنقذ المأجور، وبعضهم الآخر يعقد لقاءاتٍ واتِّفاقاتٍ مع السمسار، ليتأكَّد من ضمانات الرحلة.

كلّ ذلك يحدث على مرأى من الشرطة التركيَّة التي تحضر على شكل دوريَّاتٍ ومشاةٍ بين الناس. يتفرَّس عناصر الشرطة في وجوه الناس، من دون أن يسألوا أو يتدخَّلوا، مع علمهم المسبق بِنيَّة الموجودين، وعزمهم على الهجرة غير الشرعيَّة عبر البحر.

تتكثَّف الدوريَّات التي تقبض على المهاجرين بمحيط نقطة الانطلاق قرب بحر إيجه. أمَّا هنا، ليس لهم الحقّ بطرح الأسئلة عليهم، فالجميع يمكنهم أن يجاوبوا بجملةٍ واحدة: «نحن سيَّاح هنا».

قرب ساحة بصمانة، في بهو جامعٍ صغير، يحطّ باسل وسما رحالهما.

في بيت الله وتحت قبَّته، يمدّان كفَّيْهما طلبًا للعون من ربِّ العالمين، كالكفوف المتسوِّلة الممدودة عند الإشارات المروريَّة.

الضجيج هنا منبعثٌ من عدَّة مصادر: صوت الأطفال الذين يفوق عددهم عدد البالغين، وصوت القرآن الذي يبثّه مسجِّل الجامع والذي يختلط مع الأحاديث والجَلَبة التي لا تهدأ. أشخاصٌ يخرجون، أشخاصٌ يدخلون، يحملون أغراضًا، يتحدَّثون، يصرخون، يضحكون، ويكدِّسون بالقرب منهم سترات النجاة البرتقاليَّة.

تعتاد سما على هذه الضجَّة، تألفها.

تجول الأفكار والأشكال بعقلها، فتهمّ بإخراج الأقمشة البيضاء وعلبة الخيوط والإبر.

تبدأ بترتيب قطع القماش كلعبة البازل، قطعةً قرب قطعة، ثم كلعبة المكَّعبات قطعةً صغيرة فوق قطعةٍ أكبر قليلًا. تُهندسها لتقوم بتوصيلها بعضها ببعض.

بينما يبقى باسل متسمِّرًا قبالتها كساتر فولاذيّ، يعبّ أنفاسًا متواصلة من سيجارته، كأنَّه يحول بينها وبين العالم أجمع، ويعزلها عنه.

بعد عدَّة ساعات، تنتهي من تفصيل الطرحة، ومن رَتْق الورود الصغيرة الملوَّنة لتشكِّل تاجًا ورديًّا، تضمُّه إلى الطرحة وتخيطه بها.

تحشو بحقيبتها الصوفيَّة الطرحة المعلَّقة بالتاج. ترمق باسل بغنج، تمدّ يدها نحوه، تمرِّر أصابعها على طول ذراعه. تكتب له، ثم ما تلبث أن تُعيد ما كتبته بنعومةٍ وببطء، وتطلب منه تخمين ما خطَّته.

يرمقها بعينيْه السوداويْن الطافحتيْن رغبةً معلنة.

يُبعد سيجارته المعلَّقة بين شفتيْه، ينحني قليلًا نحوها، يقترب منها كأنَّه يحاول التقاط شيءٍ ما قربها.

يصبح وجهه ملاصقًا لوجهها، فيوهمها بأنَّه سيقبِّلها. تفرد جسدها على طول الكرتونة تحتها، وتنقلب ضاحكةً إلى الجهة الأخرى، تتوسَّد حقيبتها، يسألها هامسًا: «تهربين»؟

تغمض عينيْها، تتمتم بنبرةٍ مرحة: «تعرف أنَّني لا أهرب، أريد أن أنام قليلًا»!

إنَّها هنا، في وسط أزمير في تركيا، كأنَّها في وسط المخيَّم في لبنان.

تحوم في رأسها كلّ الأحداث التي مرَّت بها، كم ترعبها فكرةُ أن يُقدَّر لها تكرار العيشة الثقيلة!

تريد أن تنسى كلّ الخطايا التي ارتُكبت بحقِّها، ثم كلّ الخطايا التي ارتكبتها بحقِّ الآخرين. تريد أن ترتاح.

تلفت انتباهها أشياءُ المهاجرين حولها، ثم تلاحق يدَ امرأةٍ مزيَّنة بإسوار ذهبيَّة توضِّب أغراضها، تلمّها على عجلةٍ من أمرها، تهمّ بمغادرة بهو الجامع، مخلِّفة وراءها غطاءً ذهبيّ اللون لقلم حمرة.

تجتاح سما رغبةُ الاستيلاء عليه، تتأهَّب يدها اليسرى تلاحق الغطاء المتدحرج تنشله بخفَّة.

ثم ما يلبث أن يسيطر عليها شعورٌ بعدم الرضا، فلم تحصل على اللذَّة نفسها التي اعتادتها.

ترمي الغطاء جانبًا، يركض ولدٌ مسرعًا يكاد يدوسه، فيهشِّمه.

تميل بجذعها بشكلٍ خاطف، تلتقطه من جديد، تدسّه بعفويَّة في البطانة المخفيَّة.

تُدير بوجهها نحو الأعلى، نحو السماء، متناسيةً غطاءَ قلمِ

الحمرة المرمي في حقيبتها، تعود إليها أفكارها؛ بأنَّ كلّ ما حدث معها، له نتيجة إيجابيَّة واحدة، هي وصولها إلى هذه الشرفة التي تطلّ بها الآن على ضفاف العالم الآخر.

العالم الجميل الذي سيفتح أحضانه لها ولحلمها. ستبحر وتعبر المجهول نحو وجهتها ـ إيطاليا، عالم أحلامها!

يحاول باسل الملتفّ بشريط الواقع الشائك، أن يتواصل مع المهرِّب الذي استدلَّ عليه من رفيقه في ألمانيا:

«هذا الرقم مغلق، يرجى إعادة الاتِّصال ثانية، أو ترك رسالة»...

هي نفسها هذه النتيجة البائسة، لا تتغيَّر. يخرج باحثًا عن بائعِ حياةٍ آخر.

عند سورِ حديقةٍ عامَّة في وسط أزمير، يضع صبيٌّ في عمر الرابعة عشرة تقريبًا، قصاصة ورقٍ صغيرة في كفِّ باسل، ويغادر بشكلٍ سريع. كُتب في القصاصة رقم هاتف، واسم مهرِّب، مع جملةٍ واحدة: «رحلة مضمونة».

تتعدَّد الاسواق حول العالم، سوق الخضار، وسوق الذهب،

وسوق الأقمشة.. أمَّا هنا في أزمير، فيُضاف إلى اللائحة الطويلة «سوق بائعي الحياة».

تبدأ القصَّة من ساحاتها المكتظَّة بالمهرِّبين، على اختلاف جنسيَّاتهم وأعمارهم، وبالزبائن الآملين بأن يدفعوا ثمن تذكرة حياةٍ جديدة.

الهجرة غير الشرعيَّة عبر بحر إيجه، سُمٌّ محلًّى بالفراولة.

يراها الجائعون المتعطِّشون للحياة أنَّها فراولة، إنَّما هي محشوَّةٌ بالسمِّ.. والترياق الوحيد قد يكون الوطن، على الرَّغم من كلّ علقمه!

ما يلبث باسل أن يدخل في المنظومة، يجول في المدينة مستكشفًا الوضع.

تجري الأمور بشكلٍ شبه علنيّ.

السماسرة «الشقيعة»، لقب يُطلق عليهم في سوق تجارة البشر، يملأون المكان. إنَّهم المحطَّة الأولى للرحلة، تنحصر مهمَّتهم في تجميع النّفرات، أي اللاجئين، وإغرائهم برحلةٍ مضمونة، وبأسعارٍ مناسبة.

صَعُبَ على باسل الاختيار من بين كلّ العروض التي قطعت طريقه، ذلك أنَّ الخوف من الآخر، وعدم الثقة، هما الحاسمان في الاختيار.

يضع الهارب بين يدَي الشّقيع كلَّ ما يملك ليعبر مع عائلته بأمان.

تواصل باسل مع السوريِّين الذين تعرَّف بهم، وترافقوا خلال هذه الرحلة، لإيجاد سمسار، يكون سوريًّا في أغلب الأوقات، لسهولة تواصله مع السوريِّين، وبناء ثقةٍ معهم.

السمسار الذي تمَّ التوافق عليه، في الخامسة والعشرين من عمره، هرب من درعا حين اشتدَّت الحرب، بعد أن كان ناشطًا حقوقيًّا يساعد الناس في مدينته. واليوم، يساعد الناس، إنَّما على العبور. وجد في هذا العمل سبيلًا لتأمين مردودٍ بسيطٍ لعائلته، إذ يتقاضى عن كلِّ نفر 25 $.

في «مطعم الزعيم» السوريّ وسط أزمير، حيث تتمّ اللقاءات والاتِّفاقات بين السماسرة والمهرِّبين والهاربين، يلتقي الشقيع بباسل، ليتمّ عقد الاتِّفاق النهائيّ. يشرح له عن الرحلة، وخطّ سيرها، وترتيباتها، وتكلفتها الأقلّ سعرًا من غيرهم.

تكلفة الشخص الواحد 1200 $، 500 $ للطفل دون الخامسة من عمره.

يجد باسل شقيعًا يرتضي بتنزيل المبلغ إلى 1100 $ للشخص الواحد.

يسأله باسل بصوتٍ خفيض متردِّد: «إلى أيِّ مدى، هذه الرحلة مضمونة؟»

يُجيبه صبيٌّ يرافق الشّقيع: «تقريبًا، فإنَّ 7 من عشرة قوارب تنجو!»

يحملق به باسل متسائلًا بنبرةٍ يشوبها الخوف: «والثلاثة الباقية؟»

يقول الشّقيع متداركًا، بعد أن رمق الصبيّ بنظرةٍ حادَّة: «هذا بحر يا أخي، نحن نقوم بالتأمينات اللَّازمة، والباقي عند الله».

لم يكن لدى باسل خيارٌ أفضل. فالسماسرة الآخرون الذين التقى بهم، كانوا أغلى سعرًا، بالإضافة إلى أنَّهم جميعًا يقولون الكلام نفسه:

«الرحلة، كالأعمار، بيد الله!»

المغامرة غير مضمونة النهاية، يعود ويُخبر سما بمدى خطورة هذه الخطوة، مقترحًا عليها البقاء في تركيا، لكنَّه كما في كلِّ مرَّة يفشل في إقناعها.

فالإنسان الذي لا يثور لمرَّةٍ واحدة على الأقلّ خلال حياته، عاش كأنَّه حجر تبول قربه الحيوانات. لا هو تحرَّك وضربهم، ولا هم كفُّوا عن التبوُّل.

بين الأزقَّة الداخليَّة لأحياء أزمير، يرافق باسل الشقيع، يتوقَّفا أمام أحد المكاتب السياحيَّة العربيَّة، والذي يُعدّ طرفًا ثالثًا في الصفقة.

يقول الشقيع لباسل: «أتصدِّق أنَّني سأسلك طريقكم يومًا، وأعبر البحر».

يردّ عليه باسل باستهجان: «لكنَّك اليوم قد تسبَّبت بموت الكثيرين، ألست نادمًا»؟!

ينظر اليه الشّقيع بطريقةٍ باردة، ثم يسأله: «هل أُجبرك؟ هكذا الجميع، هم من يرغبون بالهجرة، يتأمَّلون حصولهم على حياةٍ أفضل».

يصمت قليلًا، ثم يُضيف: «من أنا لأمنعهم؟! إنِّي أساعدهم ليحقِّقوا أحلامهم»!

يدخل الشقيع، يتقدَّم باسل نحو الموظَّف الذي كان منهمكًا في تصفُّح رزمة أوراقٍ متراكمة على الطاولة المستطيلة أمامه، الممتلئة بتحفٍ عديدةٍ متنوِّعة، معظمها تمثِّل آثار تركيا وبعضٌ منها مندوب عن الدول الأوروبيَّة وأماكنها المعروفة، في حين آثار بلاده إمَّا سُرقت وهُرِّبت للخارج، أو دُمِّرت.

يميل الشقيع بجذعه على طرف الطاولة، متجاهلًا دورَ عددٍ من المنتظرين.

بطريقةٍ تشي بقرب العلاقة، يهمس في أذن الموظَّف كلامًا شبه سرِّيّ، ليعطيهما دورًا سريعًا.

يلتفت الموظَّف نحو باسل، ثم يشير إليه أن يجلس.

يُخرج باسل من جيبه المبلغ، يتفحَّص الأوراق النقديَّة، ثم يُعيد حسابها أكثر من مرَّة، إلى أن ناداه الشقيع.

يُعطي باسل الموظَّف 2200 $، تكلفة رحلته في البحر و 50$ للمكتب الذي يأخذ هذا المبلغ كعمولة. في المقابل، يُعطي موظَّف المكتب السياحيّ لباسل رقمًا سرِّيًّا لوديعته.

تلعب المكاتب السياحيَّة دور الوسيط بين المهرِّب والهارب،

هذا عُرفٌ سائدٌ في إزمير، لضمانِ حقّ الطرفيْن.

فإن وصل الهارب إلى الطرف الآخر يتَّصل بالمهرِّب ويعطيه الرقم السرِّي، لكي يستطيع سحب المبلغ من مكتب الحجوزات السياحيَّة. وإن لم يصل إلى الطرف الآخر، يكون قد سبق وأودع الرقم السرِّيّ مع شخصٍ قريبٍ منه ليأخذ المبلغ.

يخبِّئ باسل في جيب قميصه الصغيرة شيفرة، تحمل رقمًا سرِّيًّا لمبلغٍ باع حياة أخته مقابله، وباعت سماه شَبَعَ إخوتها، ليشتريا بهذا المبلغ حياةً بديلة!

تركوا بيوتهم قهرًا، فبقيت قلوبهم مُعلَّقةً فوق العتبات! والآن إنَّهم مثقلون بالانتظار، مثقلون بأنفسهم، يترقَّبون اللحظة التي سيأتيهم بها اتِّصالٌ أو إشارةٌ من مهرِّبهم لينتعلوا أحذيتهم المصطفَّة بالقرب منهم، ويهرعوا نحو مصيرهم.

لا أحد يعلم متى تحين تلك اللحظة الذهبيَّة.

تتفقَّد سما حقيبةَ الظهر التي ابتاعها باسل، وعبَّأها زادًا للرحلة، ولوازم أخرى بحسب نصائح الموجودين: معجون أسنان، علب جبنة، علب مارتديلا، علب تونا.. ليأكلوا منها في مشوارهم الطويل من تركيا إلى اليونان.

سألتها الأخت التي تجلس بالقرب منها: «إلى أين نويتما اللجوء؟ ألمانيا كحال الجميع؟»

ترفع سما رأسها بالنفي مجاوبةً: «إيطاليا».

تستغرب الأخت: «لماذا إيطاليا؟ سمعت أنَّهم لا يقدِّمون أيّ شيءٍ يُذكر».

تردّ سما بطريقةٍ دفاعيَّة: «يقدِّمون لي حلمي!»

تُحرِّك الأخت رأسها مستفهمةً، فتشرح سما: «تصميم فساتين بيضاء».

هذه ليلتهما الأولى، يفترشا الأرضَ كرتونًا، في طرفِ بهوِ الجامع، تحت المئذنة.

الأرض حولهما مزدحمةً بالناس المنطفئين من كثرة التعب والقلق والتشرُّد. تقترب سما من باسل متشمِّمةً رائحته، تُتخمها كسراتُ خبز، ولا يُشبعها عمرٌ كاملٌ معه.

تضبط حقيبتها تحت رأسها، ويلوي باسل ذراعه تحت رقبته، يصارع همومًا لا يمكنه السيطرة عليها.

إنَّه المجهول الذي ينتظرهما، كما ينتظرانه، يضغط على صدره كالجاثوم. بالرَّغم من أنَّ سما قربه الآن، إلَّا أنَّ فكرةً واحدة تطوف بباله، لو يرجعا إلى المخيَّم!

فيعاود الدوران ليلًا على مقربةٍ من خيمتها، يُعيد بناء بابٍ لامرئيٍّ يدلف منه إليها، يندسّ قربها، ويقبِّلها كما يشاء.

فالخيال يبقى أكثر أمانًا من الواقع!

في اليوم التالي، يتَّجهان ليشتريا سترتَي النجاة، على أمل أن يتلقَّيا خبرًا يُعلن انطلاقهما.

انقلبت السوق في أزمير، بعد وفود المهاجرين إليها، فقد

حوَّلت المحلَّات تجارتها إلى بيع ثياب البحر، وفوَّاشات، ودواليب، وسترات نجاة..

مخازنُ مكدَّسةٌ بهذه البضاعة، وبضاعة يحتكرها التجَّار الأتراك.

يساعد باسل سما بقياس سترة نجاة، في حين لم يشتر واحدةً لنفسه، بحجَّة أنَّه يُجيد السباحة، أو ربَّما يُجيد التهرُّب!

يتواصل معهما صاحب المحلّ التركيّ، ذو الشارب الطويل المعكوف، بلغة الإشارة، ويستعين بالصبيّ السوريّ الذي يعمل لديه ليترجم لهما.

ينقل لهما الصبيّ: «يقول لكما إنَّ هذه السترة تحميكما من الغرق، وتبقى لأكثر من ثلاث ساعات في الماء».

يتابع منقِّلًا رأسه بين الطرفيْن: «يقول لكما أيضًا إنَّ سعر الواحدة 22 $، وهذا سعرٌ نهائيّ».

يسأل باسل الصبيّ بلهجةٍ تنمّ عن تقارب، معتمدًا على هويَّتهما المشتركة:

«هل هذه السترة فعلًا ذات نوعيَّةٍ جيِّدة»؟

يرمي الصبيّ نظرةً نحو صاحب المحلّ، فيجده منشغلًا مع امرأةٍ وأولادها الأربعة المنهمكين بشراء دواليب سوداء لمنع الغرق، يقول لباسل هامسًا:

«في أوَّل الشارع، تجد محلًّا لديه سترات بنوعيَّات أفضل، اشترى منها أقربائي.. ونجوا والحمد لله»!

تمضي أربعة أيَّام، يتنقَّلان في بيت الله من حائطٍ إلى حائط.

يحاول باسل إيجاد غرفةٍ صغيرةٍ في فندق. لكنَّه لا يجد.

أسعار الفنادق السيِّئة منها، والرديئة حتى القرف، ارتفعت إلى حدٍّ كبير.

أعداد المهاجرين الكثيرة، وطلبهم المتزايد لغرفةٍ يأوون إليها، دفعت أصحاب الفنادق لاستغلالهم.

باسل يتحرَّق. كلّ ساعةٍ يهاتف الشقيع. فليس لديه القدرة على استئجار غرفة، ليحمي سما فيها، ويعفيها منْ النوم هكذا أمام العباد.

عينه لا تغفو، يبقى متيقِّظًا لحمايتها من أيَّة عين متجسِّسة، أو من أيِّ متحرِّشين.

الشقيع يردّ عليه باقتضاب: «انتظر منِّي خبرًا..»

وينتظر..

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

كتل النّار تكبر وتتدحرج لتلتهم المدنَ والقرى، والبيوت، والأرواح..

القيامة قامت على كلِّ رقعةٍ من سوريا..

ابنةٌ في الثالثة عشرة من عمري، ما كنت لأفهم خطورةَ ما يحدث.

في عشيَّة يومٍ مليءٍ بالأخبار الدامية، قال أبي بأسى:

«لن تعود أيَّامنا إلى ما كانت عليه!»

أنده لأمِّي من الحمَّام بصوتٍ عالٍ، فصوت أخبار التلفزيون الممتلئة بالقذائف والرصاص يحجب السمع عنها.

قطراتُ دمٍ زهريّ وجدتها على سروالي الداخليّ، أرعبتني.

لكنَّها أفرحت أمِّي التي غمرتني ضاحكةً، وهي تقول: «لقد كبرتِ أخيرًا».

راحت متلهِّفةً نحو أبي المتسمِّر أمام شاشة التلفاز يراقب الموت الزاحف، وبشَّرته: «سما أزهرت».

كنت أُزهر، بحسب ما وصفت أمِّي هذه العمليَّةِ الطبيعيَّة التي تحدث للفتيات من عمري، ومئات الأطفال يموتون، لم يحصلوا على فرصةٍ ليكبروا، وليزهروا!

هذه هي المعادلة التي توصَّلت إليها اليوم، ولم أكنْ قد توصَّلت إليها في ذلك اليوم الزهريّ.

لأنَّني نزفت دمًا، فهذا يعني أنَّ جسدي قد دخل في مرحلةِ النضوج.

والوطن؟ هل دخل أيضًا مثلي في مرحلة نضوجه التي لا يمكن أن تكتمل، إلَّا إذا سال دمُه على أرضه؟!

إنّ الأحلام العاجزة عن التحقُّق تنقلب إلى كابوس!

يتلقَّى باسل أخيرًا اتِّصالًا من الشقيع، في اليوم السادس، يُخبره بوجوب التواجد في تمام الساعة التاسعة مساءً في باحةٍ صغيرةٍ خلف مطعم الزعيم الذي تعقد بين جدرانه الصفقات، وتبدأ أولى المهمَّات للرحلة.

شاحنةٌ كبيرة لنقل المواشي، تشرِّع صندوقها لتحشو المغادرين فيه.

بيَدٍ نشّالٍ، وبطريقةٍ سريعة، يوزِّع الشّقيع المغادرين.

في آخر الصندوق، وُضعت النساء والفتيات، وفي الصفِّ الأمامي جلس الرجال، وما بينهما شُكِّل صفٌّ من غالونات الماء، وربطات الخبز، وبعضُ العِلَبِ الغذائيَّة للمهرِّب الوسيط ومساعديه.

المهرِّب الوسيط هو الحلقة الثانية في دائرة عمليَّة التهريب، يتواجد عند الشاطئ، يستلم النفرات والبلمات، ليطلقهم إلى البحر، إلى المجهول.

وقف الشقيع، متوجِّهًا للجميع: «اسمعوا، ستتوجَّهون الآن إلى نقطة الانطلاق، سيلقاكم هناك المهرِّب الآخر».

تعلو الأسئلة والاستفسارات، يُشير بيده ليسمحوا له بالتكلُّم، فلا يسكتوا. يرفع كلتا يديْه في الهواء فوق رأسه، ويقول بعصبيَّةٍ يحاول افتعالها: «يا جماعة، أتريدون أن تقبض علينا الشرطة التركيَّة؟! اهدأوا، وإلَّا قسمًا بالله أؤجِّل رحلتكم شهرًا».

يسود الجوَّ صمتٌ يشوبه التوجُّس، يلتفُّون حول الشقيع كأنَّهم يتحلَّقون حول النار في وسْطِ بقعةِ جليد، ليتدفَّأوا.

يقول لهم بنبرةٍ أرادها حاسمة لكلِّ سؤال: «ستصلون إلى نقطة الانطلاق من البحر.. هناك المهرِّب الوسيط الذي سيتولَّى أمركم».

يردف، من بعد أن تشنَّجت الوجوه المستطلعة مصيرها، ومصير عائلاتها:

«ما إن تصلوا، ترجَّلوا فورًا من الشاحنة، واركضوا بالاتِّجاه الذي يرشدكم إليه السائق، لأنَّه سيغادر فور إخلائكم الصندوق، حتى لا نقع وتقعوا في مشاكل مع الجندرمة التركيَّة».

يتكدَّس أكثر من خمسين شخصًا، لساعاتٍ عديدة، في

الشاحنة، التي إن تكرَّمت واستوعبت فلن تستوعب أكثر من ثلاثين شخصًا كحدٍّ أقصى.

تهفّ الروائح من مخلّفات المواشي التي كانت قبل قليل في مكانهم، وتمتزج بروائح الأجساد التي مضى على آخر حمَّام لها، كحدٍّ أدنى، أسبوع.

وهناك النعرات، والهمهمات، وبكاء الأطفال. بالإضافة إلى الجُمَل الصغيرة التي تخرج من الأفواه:

«أنت ابتعد.. وأنت أسكت ابنك.. إجعل يدك إلى الجهة الأخرى بعيدًا من ابنتي أو زوجتي.. أو، أو...».

من وقتٍ لآخر يعلو صوتٌ من بين المحشورين، ويصيح: «يا جماعة ما بكم؟! وحِّدوا الله.. تحمّلوا...».

يعلو صوتٌ آخر كأنَّه يخرج من مذياع: «قلوبكم توابيتكم، اجعلوها رحبة، فليساعدكم الله».

يجلس باسل عند حافَّة الصندوق، يطالع سما من بين الرؤوس النافرة والأجساد العازلة. تجلس بين امرأتيْن، تتأبَّط حقيبتها، تشدّ عليها.

تغرق في تفكيرٍ ما، أنَّها تحرَّرت حين أحرقت عائلتها، فأطلّ حلمها من أعماقها مطمئنًّا على الرَّغم من تفحُّمه.

بعد ما يقارب الساعتيْن، تتوقَّف الشاحنة، يكرج الراكبون كجيش نملٍ فاع، كما أشار لهم السائق نحو خطٍّ ترابيٍّ ضيِّق، في آخره يتلألأ سطحُ بحر إيجه.

البحر الأزرق أمامهم، بعيدًا عن أرضهم المشبَّعة برائحة الدم والرَّماد المتصاعد إلى سمائها.

يجتازون منحدرًا طويلًا مشيًا على الأقدام لساعاتٍ متواصلة.

إنَّهم يقطعون المجهول سيرًا على الأقدام، يجرُّون غالونات الماء والمؤن للمهرِّب، ويحملون متاعهم وأطفالهم وخوفهم وآمالهم وأحلامهم حتى يصلوا إلى نقطة الانطلاق من بحر إيجه.

جوقة الظلام الدامس ترافقهم، حفيف الأشجار المتعاركة مع الرياح الخفيفة يُعطي شعورًا بالبرد.

فبعضهم يشعلون ولَّاعاتهم، لتُفسح مجالًا للرؤية ولو بشكلٍ بسيط؛ ثم ما تلبث أن تشتدّ حرارتها فتلدع الأصابع، لذا يطفئونها، ويعودون ليلعنوا الظلام.

يقول الأخ بنبرةٍ صاخبة: «يا أصدقائي، أشعلوا شمعة، بدلًا من أن تلعنوا الظلام!»

تردّ امرأةٌ كبيرةٌ في السنِّ تحمل فانوسها الصغير المكسور، المتبقِّي لها من بيتها المهدَّم:

«احترقنا، واحترقت بيوتنا، ولم نَرَ نقطةَ نورٍ إلَّا من هذا الفانوس، فما بالكم بالشمعة!»

الناس كالأشباح الهاربة من العقاب يوم الحساب، موزَّعون على طول الممرِّ الترابيِّ الطويل الذي يشقّ المنحدر إلى غابتيْن. يتقدَّم باسل سما ممسكًا بيدها، يمهِّد لها المرور.

الشباب يتقدَّمون في صفوفٍ أماميَّة، والباقون: كبار السنِّ والأطفال والنساء في آخر الطابور.

لم يكونوا، قد قطعوا نصف المسافة بعد، حين بدأت تظهر من رأس المنحدر، من أعلى، أضواءٌ خافتة تزداد وضوحًا وقوَّةً كلَّما اقتربت.

يقول أحد الشباب ممازحًا: «هل أضاءت أمّنا العجوز فانوسها؟»

يصيح أحدُهم من الخلف: «الجندرمة التركيَّة يا إخوان».

يلمع في عقولهم تحذيرُ الشقيع، بأنَّ الشرطة في محيط نقطة الانطلاق، تنتشر بدوريَّاتٍ مكثَّفة. يعتقلون من يحاول الوصول إلى البحر، وإذا حدث ذلك سيخسر كلّ شيء، المال والعبور.

في ثوانٍ، قفزوا إلى جانبي المنحدر، في أحضان الحرش.

يرمون الغالونات، متاعهم، أطفالهم، أحلامهم وخوفهم في بؤرٍ غير واضحة من شدَّة الظلام.. ويهمدون.

الذلّ الذي يهمد فيهم ينكز مؤخّراتهم كرؤوس الأشواك النابتة تحتهم. تؤلمهم، ولا يمكنهم أن يرفعوا أصواتهم، أن يعبِّروا عن وجعهم، واعتراضهم.

يُخرس الكبارُ أنفسهم بالقوَّة، لكنَّ الصغار، كيف يمكن أن يُلقَّنوا الخرس؟!

تبكي سما، تمعس وجهها بذراع باسل، تلتهمها مخاوفها، ويرعبها احتمالُ إعادتها إلى المخيَّم.

فيُصدر باسل همهماتٍ مطمئنة، تخرج من فمه مرتجفةً، تموت قبل أن تصل إليها.

سيَّارتا شرطةٍ تركيَّة تسيران على مَهل نحو الأسفل بأضوائهما الممتدَّة كأيدٍ تنفض شرشفًا لتُبين ما تحته.

تسدّ الأمَّهات أفواه أطفالهنَّ، بينما يطأطئ الرجال رؤوسهم بخجل، متمنِّين لو يعتمرون قبَّعات الإخفاء عن عيون زوجاتهم وأولادهم.

تدور الأسئلة نفسها، وتنسكب كالرصاص الذائب في رأس الجميع:

«ماذا لو قُبض علينا؟»

«هل سنعود إلى سوريا؟!»

إنَّهم هنا على بعد آلاف الخطوات من حلمهم، والأصفاد على بعد عشرات الخطوات منهم..

مَن أقوى؟

الأصفاد أم الأحلام؟!

يكبو الظلام، محاولًا طرد الخوف من القلوب. لكنَّ المختبئين ظلُّوا على وضعهم بحدودِ الساعة، إلى أن تأكَّدوا أنَّ الشرطة لن تعود.

ما إن بزغ النور المتنامي حتى كشف لهم عن البؤر التي ارتموا فيها. كان المكان مخيفًا، لا يمكن لعاقلٍ أن يكبّ جسده فيه هكذا، من دون تفكير.

الأشواك كبيرةٌ مسنَّنة، لا يمكن المشي بينها. أمَّا الصخور الكبيرة والصغيرة التي تؤطِّر المنظر، فقد اصطدم فيها أكثر من وجهٍ ورأس.

تساعدوا على الصعود، أيادٍ تسحب أيادي. يخرجون كالناجين من مجزرة!

الحلم الحقيقيّ شوكةٌ عالقةٌ بباطن الإرادة، في كلِّ خطوةٍ وجعُ الوصول لتحقيقه.

تنظر سما بعينيْ باسل، ثم تقول له بخوف: «حين غادرت المخيَّم، لم أفكِّر مطلقًا أنَّني سأعود إليه، لكنْ ما حدث جرَّني إلى المخيَّم مجدَّدًا، وجدتُ نفسي هناك، أعادتني يدك إلى وعيي حين شدَّت على يدي، وأخرجتني من ذلك الجرف».

لم يقل لها شيئًا، سَحَب علبته الفضِّيَّة، لفَّ سيجارة، أشعلها، ثم عبَّ منها أنفاسًا متواصلة.

فما حدث بالأمس ناقوسُ إنذار، جعله يعترف لنفسه أنَّه قد يفشل في حماية سما ونفسه في هذه الرحلة الشاقَّة!

يستمرُّون في المشي نزولًا نحو البحر. في طريقهم، تلاقوا مع شابَّيْن لاجئيْن سوريَّيْن أيضًا، أرسلهما المهرِّب الوسيط ليبحثا عنهم بعد أن تأخَّروا في الوصول إليه، والعثور على نقطة الانطلاق، فقد ظنَّ أنَّهم تاهوا، أو قُبض عليهم.

يمشون خلف الشابَّيْن، بعضهم يثرثر، يُعيد ما حدث، والباقون يصمتون علَّهم يمحون خوف الليلة الماضية من عقولهم وقلوبهم!

تُمسك سما بيد باسل الذي يلفّه الهمّ كسروالٍ داخليٍّ ضيِّق. تُقرِّب رأسها إلى ذراعه بين فينةٍ وأخرى، فتُعيد إليه شغفًا لذيذًا بحركاتها التي يعشق..

تقول له: «مرَّةً واحدة خرجتُ في رحلة، حين ذهبنا مع معلِّمة الدين، وكانت رحلةً مقرفة».

يردّ باسل مداريًا ابتسامةً ساخرة: «هذه الرحلة، ليست أفضل بكثيرٍ من رحلتك تلك».

تقول له بنبرةٍ متفائلة: «أشجار، وبحر حولنا.. تعال نتخيَّل أنَّنا في رحلةٍ جميلة!»

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

قد تكون اللحظة التي انتقلتُ فيها من طفلةٍ طبيعيَّة إلى طفلةٍ مُكلَّفة، هي التي أوصلتني إلى هنا. فقد تمَّ نقلي بلحظةٍ من الماء الشفَّاف إلى التراب الناضج القاسي.

كنت في التاسعة من عمري حين ذهبت في أوَّل رحلةٍ في حياتي.

اقترحتْ معلِّمة الدين وقتها على إدارة المدرسة أن تخرج بنا في فسحةٍ قرب جدولٍ صغير، وسط أشجارٍ عالية في القرية

القريبة، وذلك بمناسبة بلوغنا سنّ التكليف. قالت لنا يومها ونحن نحيط بها ـ نحو عشرين فتاة بلغن التاسعة، على رؤوسنا الحجاب الأبيض:

تقول السيِّدة عائشة: «إذا بلغتِ الجاريةُ تسعَ سنين، أصبحت امرأة»[1].

تكمل كأنَّها تشرح: «الجارية كلمة تعني الفتاة، مثلكنَّ يا حبيباتي».

أهمس في أذن صديقتي نغم: «هل أصبحنا نساءً فعلًا نشبه أمَّهاتنا وجدَّادتنا؟!».

ترفع كتفيْها وتدلق شفتها، بمعنى أنَّها لا تعرف أيضًا.

وكيف لنا أن نعرف؟!

طفلةٌ تُخبِّئ شعرها حتى لا تُثير المجتمع!

أيّ مجتمع هذا الذي يُثار من شعر طفلة؟!

كنت أخلع الحجاب متى وصلت إلى البيت، أخرج من دونه

---

(1) باب الحيْض: وقد رُوي عن عائشة أنَّها قالت: (إذا بلغتِ الجارية تسع سنين فهي امرأة). رواه الترمذيّ (1/ 207)، والبيهقيّ (1/ 320) تعليقًا بدون إسناد، فقال: «وروينا عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: فذكره.
وقال:
«تعني الله أعلم فحاضت فهي امرأة».
قلت: وقد رُوي مرفوعًا من حديث ابن عمر، كما سيأتي في «النكاح» وبلفظه:
«إذا أتى على الجارية تسعُ سنين فهي امرأة».
(صفحة 199 من كتاب إرواء الغليل، الألبانيّ، لمؤلِّفه «محمَّد ناصر الدين الألبانيّ»).

لألعب خارجًا. تصرخ بي أمِّي دائمًا من شبَّاك المطبخ: «سما، سأميتك، ضعي الغطاءَ على رأسك»!

كان عندي حجابٌ واحدٌ أبيض، قصصته لأصنع منه فستان عرسٍ للعبتي.

في اليوم التالي، غافلت أمِّي وخرجت إلى المدرسة.

عند عودتي، وجدت أمِّي قد اشترت لي مجموعةَ أغطيةٍ بيضاء، وأخفت عنِّي المقصّ وأدوات الخياطة لشهرٍ كامل.

بقيت الأغطيةُ البيضاء تكبر معي إلى أن أصبحتْ فستانًا أبيض ألبسه عنوةً.

رأيت أوَّلَ غطاءِ رأسٍ يتحوَّل إلى فستان، على جسد نغم غير المكتمل.

سألتني نغم يوم عرسها، والرهبة متحجِّرةٌ في مقلتيْها: «لماذا لم تقل السيِّدة عائشة إنَّ الفتاة حين تبلغ التاسعة عشرة تصبح امرأة»؟

رفعت كتفيَّ ودلقت شفتي، بمعنى أنَّني لا أعرف.

سألت معلِّمة الدين سؤال نغم الغائبة عن الصفِّ المتواجدة في منزل زوجها، فأجابتني بثقةٍ تامَّة: «سؤالٌ جميل يا سما، لأنَّ السيِّدة عائشة تزوَّجها النبيّ في عمر التاسعة».

بتّ أفكِّر بالسيِّدة عائشة التي تزوَّجت في عمر التاسعة، متناسيةً نغم التي تزوَّجت في عمر الثانية عشرة.

في آخر أمتارٍ بين التراب والماء، يرمون بأبصارهم كصنَّارةٍ على الضفَّة الأخرى، الجزر اليونانيَّة.

«هنا آخر محطَّة، قبل أن تطأ أقدامكم الموحلة جنَّة أوروبا».

يقول المهرِّب الوسيط جملته هذه، بينما يجلس قرب شجرة تحاوطها غالونات الماء وربطات الخبز ليبقى على قيد الحياة مع مساعديه.

فهو لا يُغادر مكانه تحت الشجرة إلَّا كلّ عشرة أيَّامٍ مرَّةً واحدة، ينوب عنه مهرِّبٌ آخر لعدَّة أيَّامٍ ريثما يعود.

يعبّ دخانًا من نربيش النرجيلة، ثم يكبّه، فيغطّي وجهه المدبَّغ بِحُفَرٍ بنِّيَّةٍ وبقعٍ منتشرة على كامل سحنته جرَّاء تعرُّضه المستمرّ للشمس.

تُسمِّر سما بصرها فيه، كأنَّ وجهه ينقلب لوجه الشاويش. الشَّبه قويٌّ، أو هكذا تراءى لها.

الشاويش بنمشه ويده المعفَّرة بمصير السوريِّين الترابيّ، والمهرِّب ببقعه ويده المبلَّلة بمصير السوريِّين المائيّ.

تلتفّ يد كلٍّ منهما من جهة، حول عنق السوريِّين الهاربين من وطنهم، وتشدّ يد الشاويش لتتلاقى بيد المهرِّب، فتتشابكان إلى أن ينشف الهواء في الصدور.

الانتظار هنا، مهما كان قصيرًا سيمرّ على الجميع طويلًا، لأنَّه الأخير..

مستيقظون لآخر الحلم، يفترشون الأرض بالكراتين، وبالحرامات الرقيقة، وبثياب من كانوا قبلهم ورحلوا. سترات النجاة تُضيف بألوانها البرتقاليَّة لمسةً فنِّيَّة على المشهد.

أمامهم في البحر، حين ينطلق البلم (قاربٌ مطَّاطيٌّ) مبحرًا إلى الضفَّة الأخرى، تسود الفوضى الحماسيَّة بينهم، يصرخون، يقفزون، يُطلقون نداءاتٍ مشجِّعةً للراكبين عُرض البحر الخطِر.

ثم ما إن يبدأ بالتلاشي، حتى يصبح نقطةً هائمة في صفحةٍ زرقاء، يهمدون، يتراجعون عائدين إلى الأمكنة التي انتقوها وأقاموا معها صلةَ أمان، تغزوهم فكرةٌ واحدة: «سننال ما نريد من الحياة، ما علينا سوى أن نسخر من الصعاب».

السقف هنا الآن سماء، والنوافذُ منحوتةٌ من هواء، والمدى الممتدّ إلى الأعلى وإلى الأمام يحرسه الله، لا أبوابٌ، ولا أقفال.

هُدمت أو هُجرَت بيوتهم الكبيرةُ ذات السقوف القويَّة، والشبابيك التي يغمرها النور.

تحت سماء الله الواسعة، يضيق نَفَسُ سما، فتتفقَّد خزائن ذاكرتها، تنبش كلّ الصور المخزَّنة.

شجرة التفَّاح خلف بيتها كانت الأقوى بين كلّ الصُّوَر. تقف أمامها بصغرها، مانعةً أيّ أحدٍ من الاقتراب، أو القطف، صارخةً بعناد الأطفال:

«هذه شجرتي»!

أخبرتْها أمّها حين كبرت قليلًا بأنَّها لم تحبّ التفَّاح أبدًا، ولم تتذوَّق من شجرتها أيَّة تفَّاحة.

هل سيكون دفاعها عن حلمها، بلا معنى، كدفاعها عن شجرة تفَّاحٍ لم تتذوَّق ثمارها؟

تنفض التراب والقشّ العالق على بنطالها، تمشي مستكشفةً المكان حولها علَّها تقلب تفكيرها المشوَّش، كتلفازٍ خسر إرساله، إلى صورةٍ نقيَّة.

قرَّرت أن لا تمدّ يدها اليسرى، بينما تصطاد بعينيْها شالًا

حالته يُرثى لها ممزَّقًا ومتَّسخًا مرميًّا بين أغراضٍ متروكةٍ في كومة زبالة.

تسمح لعقلها أن يقنعها أن لا تلمّه، فهو ليس لها ببساطة، ولن تحتاجه ببساطةٍ أكثر.

تمرِّر يدها اليسرى لتنام في جيبها فارغة، وتعبرُ مترفِّعةً عن التقاط أيّ شيء. لأوَّل مرَّة، تمتلئ بلذَّة الاكتفاء من دون حاجةِ يدها اليسرى.

ربَّما بدأت ثقوبها تضيق، كأنَّ الأمان مع باسل هو الخيط الذي كانت بحاجته ليضمّ طرفيْ جزأيْها اللذين تفاقم الشرخ بينهما.

يقوم باسل بجولةٍ مع الأخ، يبحثان عن مخلَّفاتٍ قد تريح عظامهم، بدلًا من الكراتين الرقيقة.

يعودان محمَّليْن بِسْتر نجاةٍ مملَّعة كانت محشورةً بين الصخور القريبة بعد أن قذفتها الأمواج نحو الشاطئ.

ما الخير من سُترٍ لم تُنقذ لابسيها؟

يصرِّح المهرِّب من وقتٍ لآخر: «ابقوا جاهزين، لا نعلم في أيَّة لحظةٍ تصلنا البلمات».

ينامون جالسين متَّكئين على جذوع الأشجار، وسُتَرُ النجاةِ مكدَّسةٌ قرب كلّ مجموعة، مجهَّزةٌ ومتأهِّبة لتُلبس وتقوم بكامل

مهمَّتها، ما إن يُعلن عن وصول البلم وانطلاقها.

مضت ليلتان، وفي الليلة الثالثة حين تغشَّى الظلام المكان، يجرّ باسل سما مبتعديْن عن التجمُّع، فقد غصّا بكثرة الناس وضجيجهم المتوتِّر.

ينحدران هربًا إلى الناحية الثانية في عمق الغابة.

وحدهما وثالثهما الله، يتَّحدان مع العتمة اتِّحادًا كلِّيًّا، فيُضيئان.

«أخيرًا نحن لوحدنا.. كأنَّ المخيَّم كلّه معنا منذ أتينا».

يقول باسل جملته بحروفٍ متقطِّعة، تاركًا سيجارته تشتعل ببطءٍ بزاوية فمه. يرمي بثقله إلى جذع شجرةٍ كبيرة مُطاوعًا رغبةً تنغل في دمه، كفتيلٍ من لهبٍ يلفّ كلّ جسده.

ترخي سما برأسها على كتفه، تتنشَّق رائحةَ عنقه ودخانَ سيجارته، تطوف بخاطرها تلك الليالي التي أُجبرت فيها على شمّ روائح منكر ونكير.

يُجبر الإنسان أحيانًا على النظر واللمس والسمع والشمّ، لكنْ من المستحيل النجاح بإجباره على نسيان ما مرّ بحواسِّه. تبقى الصُدُوع والشقوق الناتجة عن الإكراه كلّها منافذَ لتسلُّل القهر

والغضب والخيبة من وقتٍ لآخر.

سما تُصرّ أن تنسى، تسُدّ كلّ تلك الشقوق بطِينِ تربتها وبماءِ باسل.

كما ترتق بمسروقاتها ثقوبَ معطفِ أمانها.

دبيبٌ لذيذ يمشي بكلِّ خليَّةٍ من خلاياها، تنتظر باسل أن يقول شيئًا، فهي وعلى الرَّغم من جرأتها في اتِّخاذ قراراتٍ مخيفة، تَجبنُ هنا بين ذراعيْه..

ماذا عساها تبوح؟

إنَّه الحلم الذي تَهوي به. إنَّه الحبّ الذي انتظرت لتعيشه كما حلمت، بينما تكبر سنينها تحت ثقل أجساد أزواجها..

تريد أن تُخبره أنَّ وجوده قربها، وسط غابةٍ مجهولةٍ ببلاد بعيدةٍ عن جذورها وأهلها وماضيها، يُشعرها أنَّها ببداية حياكة عمرٍ جديدٍ مختلفٍ عمَّا كان مقرَّرًا لها.

لكنَّها لا تقولُ، تقترب من عنقه أكثر، تشمّه أكثر..

تتوالد في رأس باسل آلاف الأفكار، تتجمهر في عينيْه، تُطلّ من نظراته الحائمة حول سما الممدَّدة قربه.

يُغيِّر جلسته أكثر من مرَّة، يعبّ أنفاسه الأخيرة من سيجارته، ويقترب أكثر منها، يشدّها إليه، تسأله بعينيْها الناعستيْن بعذوبة: «ماذا نفعل هنا في وسط الليل»؟

بعد دقيقةٍ، تغيَّر كلّ شيء..

يمرتُ عقب سيجارته بجذع الشجرة، ثم يستدير نحوها. يعدِّل خصلاتٍ من شعرها البنِّيّ، بصوته الذي تملأه موسيقى تتلقَّفها سما بدقَّة، يهمس: «أحبّك سمائي»!

العتمة شديدة الكثافة يخمشها بريقُ نجومٍ بعيدة، وبريقُ عيونٍ قريبة.

تنقلب ناحيته وتتسرَّب من داخلها تنهيدةٌ صغيرة. يتشهَّى أن يقرأ ملامحها الآن تحديدًا. يمسك بوجهها، يطالعه بصعوبة.

يُشعل عودَ ثقاب، يرى بعينيْها شيئًا مختلفًا لم يرَه من قبل، اشتهاءٌ ساحر. تُداعب لحيته بحركاتٍ ناعمة. يميل برأسه إليها، فتغدو المسافة بين وجهيْهما لا تتعدَّى مجرى نَفَس.

يقتربان، بشفتيْه اللتين يمشي فيهما خدرٌ بطيء، وبشفتيْها اللتين تركتهما ترتخيان من دون مقاومة، تتحدّ أنفاسهما حتى الاختناق.

يتمادى أكثر لتصبح سما قريبةً منه لأوَّل مرَّةٍ لهذه الدرجة، كأنَّها ستنعجن به، ستنصهر به. صدرها يعلو ويهبط، لا يمكنها السيطرة على وجيب قلبها.

هنا تحت سقف السماء، تسحب شفتيْها، تأخذ من بطانة حقيبتها المخفيَّة الطرحةَ المعلَّقةَ بالتاج.

تلفُّ التاج حول رأسها، فتنهدل الطرحةُ على كتفيْها، ثم تُطلق من فمها عبارةَ: «أنا وكيلة نفسي»!

هنا تحت سقف السماء، تُكلَّل عروسًا لباسل.

لا سقف القماش في خيمة منكر، ولا سقف الباطون في بيت نكير، جعلا جسدها حلالًا عليهما، وإن شهَرا ورقةً شرعيَّةً تفشَّى عليها كالزيت ختمُ شيخ!

على مرأى من عيون الله، يخلع باسل عن سما عباءتها المغلقة بأزرار الحلال والحرام، والخطيئة..

على مرأى من عيون الله، تهبه وبكلِّ رضا، كلّ ما سُلب منها بالقوَّة.

فليسجِّل الملَكان اللذان لا يهدآن، كلَّ ما يقترفانه من خطايا..

يتواريان ببعضهما بعضًا، شهيقٌ يجول بدمائهما، وزفيرٌ يُحَوِّل كلّ هذه الأشجار المحيطة بهم إلى حطبٍ قابل للاشتعال.

تقبع بين يديْه، فيحتويها كونٌ صغير.

يُجيل نظره عليها، لم يترك نقطةً بمساحات جلدها الناعم إلَّا ودفع بفمه فوقها، ثم مرَّر يديه على عينيْها، على شفتيْها، على أكتافها وأردافها.

احتلَّ كلّ جسدها، ولم تقاوم. لثمها مطوَّلًا، ثم همس لها: «لو تنتهي الدنيا الآن، لا يهمّني».

يحصرها بين ساقيْه، ترقد تحته بسلام، يلتحمان كجمرتيْن تُضيئان وهجًا عظيمًا يضغط على كلّ هذا الظلام، وفوق رأسها تاجها وطرحتها.

يتمدَّدان تحت الشجرة الشاهدة، يقول باسل ممازحًا بطلاقة:

«لقّمنا هذه الشجرة. غدًا ستثمر، وتلعننا!»

تثبِّت سما حقيبتها تحت رأسها، ممرِّرةً إصبعها على الحبَّات الزرقاء المشكوكة بأطرافها القماشيَّة، تعترف أنَّها في هذه الليلة تلاقت مع الأنثى التي كبرت في داخلها بالخفاء عنها.

العبور إلى باسل والعبور إلى حلمها نحو إيطاليا، يكملان بعضهما بعضًا.

أخيرًا، قد عبرت من التراب الزوجيّ إلى ماء الحبّ النقيّ..

تتأمَّل باسل الذي بدأ يدخِّن سيجارته الثانية، يعبّ نَفَسًا، ويقبِّلها، ثم يعبّ نَفَسًا آخر..

كيف لهذا اللَّامنتمي أن يجعلها تنتمي إلى نفسها وجسدها مجدَّدًا؟!

في الجهة الأخرى من الغابة، على وقع صراخِ رضيعٍ لا ينقطع يخدش السكون، ترتسم دائرةٌ بالأجساد الممدَّدة حول النار، يبدِّدون الوقت بأصابعهم التي باتت أقلامًا تضغط على الشاشات الذكيَّة لهواتفهم النقَّالة، يتواصلون مع أهلهم وأقاربهم، مع من عبروا ووصلوا، ويطَّلعون على الأخبار الدوليَّة، يتابعون الدول التي تفتح أحضانها لكلِّ الوافدين، شاتمين تلك التي حصَّنت حدودها بوجه من سبقوهم.

يتلقَّى المهرِّب أخيرًا اتِّصالًا بمثابة الضوء الأخضر للرحيل.

يتهيَّأ ستَّة شباب، اثنان من مساعديه والباقون من الشباب المهاجرين، ليصعدوا إلى أعلى المنحدر، ويستلموا البلمات (القوارب المطَّاطيَّة) من رجال «الجِدّ».

الجِدّ هو المهرِّب الكبير، يكون دائمًا تركيًّا، رئيس عصابة

التهريب البشريّ. يشتري البلمات، ويُدير العمليَّة.

أمّا الشقيعة والمهرِّبون الوسطاء فهم يعملون تحت إشرافه.

الأجدر والأقوى بين المهرِّبين الأجداد، هو من ينجح في بناء جسرٍ متينٍ مع خفر السواحل ليحمي تجارته البشريَّة، ويؤمِّن عبورها.

انطلق الشباب ليُحضروا البلمات.

في حين يُقسِّم المهرِّب الأعداد على مجموعات. يلمّ اللَّاجئون أغراضهم، يجمعون بعضهم بعضًا، ويرتدون سترات النجاة..

تصطفّ البلمات قرب بعضها بعضًا، يهمُّون بنفخها، يتنادى المهاجرون:

«البلمات وصلت».

بانتظار اتِّصالٍ ثانٍ يأتي من الجدّ للمهرِّب، كي تنطلق.

تتأهَّب المجموعات، تتجهَّز للركض نحو البحر، كيوم الحشر، الكل مشغولٌ بنفسه وعائلته، والكلّ يريد أن يُنهي هذه الخطوة. بين هذه الغابة وتلك الجزيرة، خطوةٌ واحدة، خطوةٌ من التراب إلى الماء.

يصل باسل وسما إلى نقطة التجمُّع، كالعائدَيْن من حلم، فيجدان المكان شبه خالٍ، كأنَّ حربًا دارت ثم انتهت، مخلِّفة

وراءها آثار بشرٍ كانوا هنا.

يتقدَّمان إلى الجهة الموالية للبحر، حيث كان الناس بستراتهم البرتقاليَّة يتكدَّسون خلف بعضهم بعضًا، يتنادون كلٌّ بحسب مجموعته، يترقَّبون إشارةً من يد المهرِّب ليُبحروا.

كانت البلمات أشبه بالحيتان النافقة ممدَّدةً عند الشاطئ..

تلبس سما سترتها، تُعيد ترتيب طرحتها وتاجها، تهمس لباسل بحماس:

«سأصل الضفَّة الأخرى عروسًا».

يحمل باسل حقيبةَ الظهر، ويندسَّان بين الجموع.

«سأُبحر بجواز سفرٍ كُتب عليه: «اللعنة على الدول العربيَّة»!

تنقر هذه الجملة رأس سما، تتحرَّك في دواخلها، تشقّ طريقها إلى حنجرتها، فتلقيها بأذن باسل. يُخبِّئان جوازاتهما السوريَّة ومبلغ المال في أكياس نايلون، لمنع نفاذ الماء إليها.

يقول المهرِّب ملتفتًا بين لحظةٍ وأخرى إلى هاتفه الجوَّال يستطلع عبره حال الطقس: «الهواء لطيفٌ هذه الليلة، حال الموج شبه مثاليَّة».

ما إن يبدأ الليل يلمّ أذياله السوداء، متيحًا للضوء بالتسلُّل عبر نتف السحاب، حتى تُطلق، من يد المهرِّب، إشاراتُ بدءِ الرحلة الأولى.

ينكبّ مساعدو المهرِّب على البلم الأوَّل، بإشراف رجال الجَدّ المسلَّحين، يعبِّئونه، يحشونه، ثم يدفعونه بين دفَّات الأمواج..

الرحلة الثانية، البلم الثاني، يمرِّرونه إلى عتبة البحر، يتقاطر المهاجرون مسرعي الخطى على نحوٍ شبه مجنون، كمن فتح باب الخلاص أمامهم، ولديْهم بضعُ ثوانٍ ليعبروه، أو سيُرمى بهم مجدَّدًا في الجحيم.

بلم، طوله يصل إلى 8 أمتار، يجب أن لا تتعدّى حمولته الأربعين راكبًا. لكن يُحشى فيه ما يزيد على ستِّين راكبًا، مرصوصين كعلب السردين على الرفوف.

يلكز أحدُ رجال الجَدّ بأخمص بارودته رأسَ رجلٍ يهمُّ بالصعود إلى البلم يحمل ثلاث حقائب، يصرخ به: «أأنت ذاهب في باخرة خمسة نجوم؟! إرمها.. وخذ واحدة»!

تمسك سما بيد باسل، ثم تشبك ذراعها بذراعه، تهزّ قدمها بوتيرةٍ سريعة.

يقف باسل كرجل الثلج تحت الشمس، يذوب تدريجيًّا، ينتهي ببطء.

ينادي مساعدو المهرِّب على النساء والأطفال ليتقدَّموا.

يتجمَّعون، يجلسون على أرضيَّة البلم، تاركين الأطراف للرجال.

تُسَحب سما عن باسل، تخضع لطريقة توزيع الأماكن المعتمدة من قبلهم.

ثم ما إن يتعبَّأ البلم، يمتلئ بالأنفاس المتهدِّجة المتلاصقة، تبدأ سما البحث عن باسل. يجول بعقلها أنَّه لا يلبس سترةً برتقاليَّة، يلبس كنزته القطنيَّة البيضاء، يحمل حقيبة ظهرٍ صفراء.

كثيرة ومتعدِّدة الألوان من حولها، لا تنجح بإيجاد باسل.

تلاحظ أنَّ الناس من حولها قد انتبهوا لطرحتها وتاجها، يتأمَّلونها باستغراب، ترتجف بوتيرةٍ مضاعفة، تنقل نظرها على الشاطئ، تتقاطع تساؤلاتٌ مرعبةٌ برأسها:

هل تركني وحدي أعبر الماء؟

هل أرجعه خوفه من الماء إلى التراب؟

بثانيةٍ واحدة، أُعيد لها ماء وجهها وقلبها، حين نده لها باسل من الطرف الآخر للبلم، يجلس بينهما رجلٌ سمين يحجب الرؤية التي تُسكِّن سما وتُعيد لها أمانها، يحجب عنها باسل.

ينطلق البلم غائرًا في بحر إيجه، لكنَّ السفينة الملوَّنة لا تصبغ البحر، إنَّها تفقد ألوانها!

من بعد أن أوكل المهرِّب إلى أحد الشبَّان المهاجرين مهمَّةَ قيادة البلم، بالرَّغم من اعتراض الجميع، وحتى اعتراض الشابّ نفسه.

إلَّا أنَّهم لم يجدوا حلًّا غير أن يقبلوا، فالمهرِّب لا يُرسل مع البلم أيّ أحدٍ من طرفه، توخِّيًا للحذر.

يستلم الشابّ زمام القيادة، بعد أن زوَّده أحدُ مساعدي المهرِّب بجهازٍ يرشده إلى وجهتهم.

يصيح مساعدٌ آخر بصوتٍ عالٍ كبوق في السماء: «مزِّقوا البلم حين تصلون الشواطئ اليونانيَّة».

تعلو الأنفاس في الصدور الخائفة المترقِّبة.

كيف تصبح رائحة الخوف المنبعثة من الأنفاس حين تمتزج برائحة البحر اللزجة؟!

يخبِّئون في جيوبهم وحقائبهم جوازاتهم وأوراقهم السوريَّة المغلَّفة بأكياس نايلون عازلة للماء.

جوازاتهم السوريَّة التي ستعرِّف عنهم، وتعطيهم تلك الإشارة الخضراء للمرور إلى أيَّة دولة يختارونها.

تكبو سما، تضمّ ركبتيْها إلى جسمها، تشدّ رأسها بتاجها الورديّ بينما تتطاير طرحتها إلى الخلف، وحقيبتها متدلِّية من كتفها، تمرِّر نظرها على الجالسين قربها، الأخت وأمّ الطفل الذي يبكي بشكلٍ دائم، والعجوز صاحبة الفانوس التي تكرِّر: «لو أعود، فالوطن الذي تركته لم يتركني، إنَّه يئنّ بي».

ثم تتلفَّت نحو النساء حولها، وتضيف بإصرار: «الأوطان لا تترك أولادها».

أمَّا بمحاذاة سما تمامًا، فتلتصق بها فتاةٌ أيزيديَّة هربت من داعش بعد أن اختطفوها من قريتها في سنجار، في العراق. زوجها الذي يجلس خلفها تمامًا، يهمس لها بشكلٍ مستمرّ: «أنا معك يوفا[1]، **لا تخافي**».

من هربت من زواجٍ لا تريده، ومن هربت من داعش، ومن هربت من الفقر، ومن هربت من الحرب..

---

(1) يوفا: هي الشخصيَّة الرئيسيَّة في رواية «على مائدة داعش»، تتناول الرواية موضوع الأيزيديَّات المختطفات لدى داعش.

كلُّهنَّ نساءٌ هربن من التراب، جلسن القرفصاء على أرضيَّةٍ مطَّاطيَّة، ينتظرن الخلاص من الماء، الانعتاق بالعبور أو بالغرق.

ترفع سما رأسها متطلِّعةً نحو باسل، وكأنَّها أضاعته لوقتٍ طويل، تجده يتهادى مع حركة البلم معلِّقًا عينيْه عليها، ينظر كما ينظر دائمًا بطريقته الرائعة، لكنْ هذه المرَّة كانت الأروع، إنَّها عروسه الآن.

عروسٌ على قارب الموت، إنَّها المعادلة الصادمة: يتوالد الموت والحياة من أرحام بعضهما بعضًا.

يقول أحد الراكبين: «إنَّ كلّ هذه المخاطر لا تساوي عبور حاجزٍ واحدٍ في سوريا».

أضاءت العجوز فانوسها، ثم ما لبث أن خفت ضوؤه، فقالت من دون أن تنتظر من أحد أن يُجيبها: «قال تعالى: وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ، لماذا الخوف؟!»

تطفو همسات الابتهال في جوِّ البلم الذي يتقدَّم في عُرض البحر.. آياتٌ قرآنيَّة، وأدعية، وأمنيات، وكلماتٌ صغيرة تفلت من الشفاه المتوسِّلة الأقدار.

يمضي ما يقارب الساعة، يحاول خلالها السائق المهاجر أن يتقيَّد بما يبثّه الجهاز من إرشادات، إلى أن بدأ مستوى الماء يرتفع وينخفض.

يخوض البلم الأمواج، يمور بقوَّة، تميله موجةٌ فتتلقَّفه الأخرى.

يرتبك السائق محاولًا تدارك الأمر. يسيِّر البلم باتِّجاهٍ منحرفٍ عن مجرى التيَّارات المائيَّة والأمواج، لكنَّه لم يفلح. بل تأخذ الأمواج تعلو، ثم تخبط بالبلم، ويعلو الصراخ.

يضطرب الجميع، يحوقلون، يندفعون، يتحرَّكون بشكلٍ عشوائيّ، يتداخلون، يمسّهم الذعر.

من بين الأصوات الصادحة، والمجنونة، والمستغيثة، تطلّ أصواتٌ تعلو بترجٍّ:

«إجلسوا..

اهدأوا يا جماعة..

سينقلب البلم إذا بقيتم هكذا..!»

لا أحد يسمع.. لا أحد يمتلك وعيًا.

يتعبَّأ البلم بالماء، يقفز بعض الشباب إلى البحر، ليخفِّفوا من الثقل.

صوت الطفل الصغير يتوارى بين كلِّ الأصوات، تسعى أمّه جاهدةً إلى أن ترفعه حتى لا يبتلع ماء.

تحاول سما، بالرَّغم من بللها الذي أثقل حركتها، أن تحبو نحو باسل، تشقّ ممرًّا بين المذعورين الذين يتخبَّطون بعضهم ببعض. يمسك بذراعها، يشدّها نحوه لتسمعه، ويقول بطريقةٍ متجزأة منقسمةٍ إلى عدةً مخارج صوتيَّةٍ غير مفهومة: «إق.. إق.. إقفزي معي».

تخاف، تتشبَّث بقدمه، يجاهد بأن يتكلَّم، يتلعثم، ترتجّ الأحرف على لسانه كأنَّها تهوي بجوفه، لا يعرف كيف يُشكِّل منها الكلمات، حتى نطق أخيرًا صارخًا بها:

«البلم يغرق، اقفزي!»

الاسم: سما

العمر: 17 عامًا

الحال الاجتماعيَّة: مطلَّقة مرَّتيْن

المخيَّم: مخيَّم الوطن

قبل الزواج، قبل النزوح وقبل الحرب.

كنت صغيرةً ألعب بالقرب من جدَّتي، التي تجاهد بنظرها الضعيف أن تثبِّت زرًّا في وسط حقيبةٍ صوفيَّة.

حين أنهت، نادت لي: «سما اقتربي».

مدَّت كفَّها المجعَّدة إلى وجهي، مرَّرت أصابعها على جبيني، مردِّدةً تلك الأغنية التي طالما ردَّدتها لي منذ صغري:

«السماء تُهدي من تشاء..»

سألتها: «ما هي هديَّتك يا جدَّتي؟»

وضعت حبل الحقيبة المجدول من خيطانٍ ملوَّنة على كتفي لتناسبه مع طولي، قالت لي: «هذه هديَّتي، والآن أصبحت لكِ».

فتَحَت الحقيبة مشيرةً إلى البطانة الخفيَّة داخل جوفها، وقالت بنبرةٍ منخفضة كأنَّها تفشي لي سرًّا: «خبِّئي هنا أحلامك».

منذ أربعين سنة، خبَّأت جدَّتي أحلامها هنا، ببطانة هذه الحقيبة، ولم تملّ من إخبارنا قصَّتها حتى في آخر أيَّامها.

حين كانت بعمر السابعة عشرة، في يوم عرسها، سرقت مهرها ـ والذي كان ليرتيْن ذهبيَّتيْن، لتلاقي جدِّي الفقير عند ضفاف نهرٍ على تخوم قريتهما.

تخلَّصا من التراب حين عبرا الماء إلى الضفَّة الأخرى.

هاربون إلى الحياة، ولا يعلمون أنَّ في حقائبهم يختبئ الموت، وأنَّ كلّ ما تلقَّنوه خرافة. وحدها التجارب التي تقتطع لحمهم الحيّ هي الحقيقة.

أيادي البشر المرتفعة في الهواء صوب السماء، تنتظر حبلًا يهوي إليها لتتعلَّق به، ثم ينتشلها إلى برّ الحياة.

كلّ هذه الأيادي الممدودة بهلع، أُسدلت بعد ترقُّبٍ طويلٍ من دون جدوى.

تخمد عن الولولة المتوسِّلة، تستحيل إلى أنين، الطلبات المتتالية التي لم تكن تعرف نهاية، ولم تكن تعرف كيف تتوقَّف، خرست.

بعد أكثر من ساعتيْن، بعضهم ما يزال يبرطع على وجه بحر إيجه..

وبعضهم الآخر يهوي راقدًا في بطنه الواسع.

لا يفعل الإنسان شيئًا مهمًّا سوى الموت!

تغيم السترات البرتقاليَّة متمايلةً خفيفةً فوق الماء، تخلَّت عن حمولتها من الأجساد المتعبة التي استسلمت للهبوط والاسترخاء أخيرًا، بعد كلّ الجهود التي حاولتها لأن تبقى على قيد النفس.

في اللحظة التي تنعزل فيها الحياة عن الموت، في هذه اللحظة تحديدًا، يصمت الطفل إلى الأبد. لم تقوَ أمّه على أن ترفعه أكثر، تشرَّب الماء كلّه، حتى خُيِّل إليها أنَّ البحر قد جفّ، ونبع في أحشائه.

ينطفئ خوفًا قلبُ العجوز كفانوسها، حتى قبل أن يغرق البلم.

الأخت تبحث عن أخيها الذي فُقد منذ لحظة غرق البلم، تسبح في كلِّ الاتِّجاهات، تصيح بهلوسة: «لا يمكن أن يغرق، إنَّه يسبح جيِّدًا!»

ثم تدور على الأحياء المصبَّرين فزعًا، وتسأل الجميع عنه.

الفتاة الأيزيديَّة فقدت وعيها، فوضعها زوجها على كتفه، سابحًا بها في اتِّجاهٍ غير معروف. علَّه يصل إلى ترابٍ ما.

أمَّا الباقون، الذين نجوا، إلى الآن، يتحرَّكون بشكلٍ أبله، يُديرون وجوههم باحثين عن مُنقذ، قبل أن تخور قواهم، ويتقلَّص الهواء المحشوّ في ستراتهم البرتقاليَّة، فيهوون.

تطفو الجثث التي تُحيط بباسل وسما على الرقعة الزرقاء

للبحر، تنعكس صُوَرُها على الرقعة الزرقاء للسماء، معلنةً أنَّ الدعاء عقيم، لا يُنجب أطواق النجاة.

سما ترتجف من البرد، ومن الخوف، ومن الخيبة. تمدّ بصرها نحو الطرحة بتاجها الورديّ التي سحبتها الأمواج، وعلقت على يد أحد الغرقى..

تصطكّ أسنانها، تسعى لأن تبقى قرب باسل، تقاوم كلّ موجة، يستعين باسل بين حينٍ وآخر بها، لأنَّها تتسلَّح بسترة نجاة.

ينتشر الذعر الذي نبت في صدرها ويتوسَّع بكلِّ جسدها.

يقطع الذعر الذي نبت في صدرها خيوطها التي رتقت بها ثقوبها، فتمزَّقت الثقوب مجدَّدًا تاركةً كلّ هذه الملوحة تنسكب فيها، وتكويها.

سرقت شَبَعَ إخوتها لتسدّ جوعها، ولتلمّ أطراف حياتها، وتُعيد خياطتها كما تحبّ. تعود سما بوجعها وفقدها إلى نقطة البداية.

تبزغ في أعماقها رغبةٌ شديدة، أكثر من أيَّة مرَّةٍ سابقة، بأن تسرق.

تحرَّكت يدها اليسرى، تريد أن تمتدّ إلى الجثث العائمة قربها.

ترغب أن تستلّ من الموتى أشياءهم، وحيواتهم التي لم يعيشوها، وأحلامهم التي خاطروا من أجلها..

لكن أين ستضع كلّ أشيائهم؟ أين ستُخبِّئها؟

تتفقَّد بعينيْها حقيبتها الصوفيَّة، فلا تجدها. سلبها منها البحر. ضمَّها إلى مجموعته الكبيرة من الصناديق السوداء التي ابتلعها على مرِّ العصور.

هل تخلَّصت من خطاياها بمجرَّد أن تخلَّصت من حقيبتها؟

بينما هي على مقربة من الموت، قد يكون من الأفضل لها لو تتخلَّص من ذنوبها، لا أن تراكم منها المزيد عبر السرقات، فليس ثمَّة خيالٌ يفوق هذا الواقع غرابةً وجنونًا ورعبًا!

يتخبَّط باسل وسما في وسط الماء، تتحلَّق حولهما دائرةٌ من جثث، ومن أجسادٍ ما زالت تفوح الروح منها تبحث عن بقعة ترابٍ لتنجو.

بقوا عالقين بين الماء والهواء، لا هم بطيورٍ ليحلِّقوا، ولا هم بأسماك ليسبحوا!

إنَّهم بشر، مدجَّجون بأحلامهم الهالكة، وبخطاياهم المهلكة.

وطني، سفقتنا ترابك، كبرنا وغصصنا.

وطني، أشربتنا ماءك.. كبرنا وغرقنا.

ملاحظة:

كلّ هذه الأوراق التي كتبتْها سما للمشروع الذي أقامته منظَّمةٌ تابعة للأمم المتَّحدة، قبل أن تقوم برحلتها مع باسل، بقيت في عتمة الدُّرْج منسيَّة ومُهملة لم يقرأها أحد.

المشروع توقَّف، لأنَّه لم يلقَ التمويل الكافي ليستمرّ.

في حين ما زالت الحرب مستمرَّة، واللجوء مستمرّ، وزواج القاصرات مستمرّ، والغرق مستمرّ.

انتهت

تخوض «سما»، الفتاة السوريّة، تجربةَ الانتقال القاسي بين عدّة أنواع من التُّراب:

بدءًا من تراب الحرب المشتعلة في قريتها، مرورًا بتراب اللجوء في مخيَّم للنازحين السوريِّين في لبنان، وصولًا إلى تراب زواجيْن متتاليَيْن وهي في عمر المراهقة.

في خضمّ هذه التقلُّبات وعلى الرَّغم من كلِّ القيود، تَخيطُ سَما حلمَها في أرضٍ جديدة. عبر خطوةٍ واحدة، من التُّراب الى الماء، تأمل «سما» مع حبيبها «باسل» أن تتغيَّر أقدارهما. فهل سيكون الماء خلاصًا من التُّراب؟

زهراء عبد الله روائيَّة لبنانيَّة ـ سوريَّة. صدر لها عن دار الآداب رواية «على مائدة داعش».

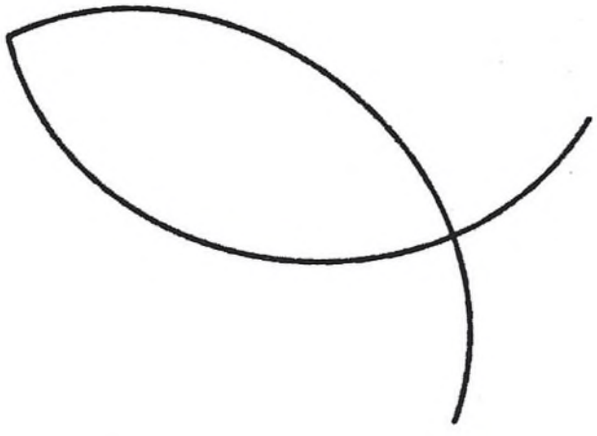

تصميم الغلاف: أيمن ملاط، محمد الزعبي

ISBN: 978-9953-89-700-4

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:1795135 –1861633 (+961)